الشباب العربي والمشاركة السياسية (٤) : مصر

ملفّ من إعداد وتقديم:
أحمد الخميسي
(مراسل الآداب في القاهرة)

المشاركون
(ألفبائيّاً)

- أحمد بهاء الدين شعبان
- عبد الرحيم علي
- مختار شعيب
- مدحت الزاهد
- مصطفى بيومي

لم يكن واردًا عند إعداد هذا الملفّ أن نتمكّن من تغطية كلّ أوجه حركة الشباب المصري في علاقته بالسياسة والحياة العامة ـ فهذه مهمةٌ أكبرُ من أن يتصدّى لها ملفٌّ، أو بحثٌ بمفرده. ومن ثم كان علينا أن نختار وأن نتوقّف عند بعض القضايا دون غيرها، شرطَ أن تكون محوريةً، وقادرةً على كشف الزوايا الرئيسية في حركة الشباب المصري.

من هذه الزوايا بالطبع نشأةُ تيار الإسلام السياسي في الجامعات، وامتدادُه، وصولاً إلى فوزه الساحق في الانتخابات البرلمانية ـ وهذا ما يَعْرضه مقالُ عبد الرحيم علي. لكنْ قبل ذلك هناك ضرورةٌ للحديث عن أوضاع الشباب الاقتصادية، وميولهم السياسية، ونِسَبِ توزُّعهم على الأحزاب والحركاتِ السياسية، والعوامل التي تَحْكم تلك الميولَ ـ وهذا ما يقدِّمه بشكلٍ وافٍ مقالُ مختار شعيب. وخارجَ سياق الظروف الاجتماعية، وانتشار الإسلام السياسي، تَبْرز حقيقةٌ أخرى بين الشباب المصري هي ظهورُ جماعاتٍ وحركاتٍ جديدةٍ، من حيث الرؤى أو أساليبُ العمل، في محاولةٍ لتجاوز ماضي العمل السياسي ـ وهذا ما يصبّ جهدَه في إطاره مقالُ مدحت الزاهد. أما أحمد بهاء الدين شعبان فيركّز على حركة «كفاية» والحركات التي تفرّعتْ منها. وأخيرًا، فقد ارتأيتُ أن أتوقّف عند تجلّيات الحركة الطلابية ونضالها في الأدب المصري، وهو جانبٌ قلّما تعرّض له أحدٌ على الرغم من أنّه يَعْكس أهميةَ تلك الحركات في ضمير المجتمع المصري ـ وهذا ما يقدِّمه لنا مقالُ مصطفى بيومي.

علاوةً على ذلك فقد أضفتُ إلى الملفّ أسماءَ عددٍ من المراجع والكتب المتعلّقة بالحركة الطلابية، وعدد من مواقع الشباب المصري على الانترنت، لكلّ مَنْ يَسْعى إلى المزيد من الاطّلاع المستقلّ على واقع الحركة الشبابية المصرية

ولا شك في أنّ الصورة العامة لشبابٍ مشتّتٍ، موزّع، قد تَتْرك انطباعًا غيرَ صحيح عن سلبية الشباب المصري، وتفضيلِه الركونَ إلى ما هو قائم، وسعيه إلى حلول ذاتية لمشكلاتِ جيلٍ أو أجيالٍ بأكملها. وتزداد هذه الصورةُ قتامةً حين نواجَهُ بحقيقةِ أنّ تيار الإسلام السياسي، بمختلف روافده، قد فاز بحصّة الأسد من مشاركة الشباب السياسية. وفي عملية البحث عن الاعتبارات التي شكّلتْ تلك الصورةَ، تصبح العواملُ الاقتصاديةُ الضاغطة، والقوانينُ المقيِّدة لحركة الشباب، هي التفسيرَ الأسهلَ والأقربَ إلى الفهم. فالإحصائياتُ الرسمية تؤكّد أنّ غالبية العاطلين عن العمل في مصر هم من حَمَلة المؤهّلات العليا، ويصل عددُهم إلى أكثر من أربعة ملايين شابّ. كما أنّ هناك نحو سبعة ملايين آخرين من خرّيجي المعاهد العليا والمتوسطة، ومثلهم من العمّال، يتعيّشون من أعمال يدوية موقّتة ويمارسون من المهن ما لا يكفي لسدّ حاجاتهم الأساسية. ومن ناحية أخرى هناك معوِّقات العمل السياسي، وفي مقدّمتها لائحةُ ١٩٧٩ المعمولُ بها حتى الآن والتي حَظرت العملَ السياسيَّ داخل الجامعة. وهناك أيضًا قانونُ الطوارئ، وترسانةٌ من القوانين المقيِّدة لكافة أشكال الحريات الأخرى. وعلاوةً على ما سبق، ثمة الممارسةُ الفعليةُ للنظام التي لا تستنكف عن الضربِ والتعذيبِ والملاحقةِ والفصلِ من الجامعات أو من العمل

وهكذا يبدو الشبابُ محاصَرًا بين حَجَري الرَّحى: الظروف الاقتصادية القاسية، والقوانين المقيِّدة للعمل السياسي. ويبدو أنّ لهذيْن العامليْن الغَلَبَة في دفع الشباب إلى اعتزال معترك الحياة السياسية وطردِ ٩٢ ٪ منهم خارج ساحة المشاركة، وتحويلهم إلى صورةِ شبابٍ مشتّتٍ بلا هدفٍ أو فاعلية.

إلاّ أنّ الأسئلة التي ألحّتْ عليّ هي: هل كانت الظروف الاقتصادية اهون، وهل كانت شروطُ العمل السياسي أسهلَ، أثناء عنفوان المشاركة الشبابية في ثورة ١٩١٩؟ وهل كانت تلك الشروطُ أكثرَ رحمةً حين شارك الشبابُ في انتفاضة ١٩٣٥؟ وفي تدافعهم لخلق تجربة «اللجنة الوطنية للعمّال والطلبة» عامَ ١٩٤٦؟ وفي مظاهرات فبراير للاحتجاج على نكسة ١٩٦٧؟ ثم مظاهرات ١٩٧٢؟

الواقع أنّه في تلك المحطّات التاريخية كلِّها لم تكن ظروفُ الشباب الاقتصادية ولا شروطُ العمل السياسي أهونَ. لكنّ الشباب لم يتقاعسوا، وتقدّموا صفوفَ المجتمع المصري من أجل حماية الوطن وتحريره، ولأجل الديموقراطية والدستور والحياة النيابية. وإذا كان الشباب قد انتفضوا في حركات طلابية، وأكّدوا انتماءهم إلى وطنهم بالانضواء في حركات سياسية معارضة، في ظلّ ظروف اقتصادية وسياسية صعبة من قبل، فما الذي يَمْنعهم الآن من النهوض بمسؤولياتهم؟ لا بدّ أنّ ثمة سببًا آخرَ، إضافيّاً، وجديدًا، يرسِّخ حالةَ اللامبالاة أو اليأس أو الهمود. ذلك أنّ الأوضاع الاقتصادية وظروف العمل السياسي الضاغطة قد تشكِّل حاجزًا، لكنّها قد تشكِّل أيضًا **حافزًا** للتحدِّي. أين هي المشكلة إذن؟

في اعتقادي أنّ المشكلة تَكْمن في **التشتُّت الفكري** أساسًا ففي كلّ مراحل نشاط الحركة الطلابية في ما مضى، كان ثمة هدفٌ واضحٌ ورؤيةٌ. فما قبل ثورة ١٩٥٢، كان الاستعمارُ البريطاني يَجْثم على صدر مصر، ويتوزّع جنودُه ما بين شوارع القاهرة وشواطئ قناة السويس وفيما بعد ارتبطتْ أولى شرارات يقظة الحركة الطلابية برفض النكسة، والتشبُّثِ بمواصلة الصراع ضدّ إسرائيل حمايةً لاستقلال مصر وتطوُّرها. أما الآن، فإنّ حقيقة الوضع المصري تنأى بنفسها عن الأعين، وتَغِيب في الضباب. وحقيقةُ هذا الوضع هو أنّنا بلدٌ شبهُ محتلّ، لا يَسَعنا وفق اتفاقيات كامب ديڤيد أن نحرِّكَ جنديّاً في سيناء، ولا نستطيعُ أن نسيِّر دبابةً، أو نحشوَ بندقيةً هناك. أقول إنّ تلك الوضعية، وضعيةَ البلدِ شبهِ المحتلّ، غائبةٌ عن الأعين، رغم أنّ معظم المشكلات تنبثق من التحكم الأميركي ـ الإسرائيلي في مصير مصر من بعيد. وقد تَرَافَقَ تغييبُ تلك الحقيقة مع قصفٍ مركّزٍ يوميّ للفكر الوطني، بشتّى الوسائل وهكذا أصبح الشبابُ يحيا وسط كلّ التيارات السياسية: بين الليبراليين الذين يبدأون وينتهون بأنّ مشكلة مصر هي الانتخابات؛ وبين تيار الإسلام السياسي الذي يرى أنّ «الإسلام هو الحل» (والإسلام عنده هو تحسين أخلاق كل فرد على حدة)؛ وبين تيارات يسارية قديمة لم تُثْبتْ لعقودٍ طويلةٍ قدرتَها على طرح برامج كفاحية؛ وبين مجموعات تنتشر كالفطر تتعيَّش من التمويل الأجنبي، مدَّعيةً أنّه لا نضال بدون مال، وتَنْشر خلال ذلك فكرةَ تجزئة قضية الوطن إلى فتاتِ قضايا ـ كحقوق الطفل، وحقوق النساء، وحقوق السجين، وغير ذلك. ولهذا، فإنّ ثمةَ لحظاتٍ خاصةً يحتشد الشبابُ خلفَها بقوة، وهي تلك اللحظات التي يتّضح فيها الهدفُ، مثلما حدث عند الاجتياح الإسرائيلي لأراضي السلطة الفلسطينية عام ٢٠٠٠، وعند الغزو الأميركي للعراق عامَ ٢٠٠٣ ـ فقد وجد الشبابُ في تلك اللحظات صورةَ العدوّ القابع بعيدًا عن قلب القاهرة.

وفي النهاية أرجو أن يجد القارئ شيئًا مفيدًا في ذلك الملفّ.

أ.خ.

الميول السياسية للشباب وغياب المشروع القومي

مختار شعيب

ثلاثةُ أجيالٍ من الشباب

تؤكّد الدولةُ عندنا صباحَ مساءَ أنّ الشباب هم أعزُّ ما تَمْلك، وأنّها تضع لهم في كلّ ساعة مئات الخطط والبرامج لتمنحهم كلَّ الفرص الممكنة. لكنّ نظرةً حولنا تَكْشف لنا أنّ الشباب المصري مقيَّدٌ بأغلال البطالة، والغلاء، والسلبية. ويَطْرح ذلك المشهدُ عدةَ تساؤلات، أوّلُها. هل حركةُ الشباب فاقدةٌ للانتماء حقّاً، أمْ أنّها تَحْتاج إلى هدف قوميّ عامٍّ يَجْمعها؟ وثانيها: ما هي المعوّقات التي تَحُول دون قيامهم بدورهم، وكيف يمكن التغلُّب عليها؟ لكنّ السؤال الأهمّ هو: ما هي طبيعة جيل الشباب في مصر، وكيف يمكن تصنيفُه سياسيّاً؟

ثمة ثلاثة أجيال من الشباب في مصر.

• **الجيل الأول** يضم مَنْ وُلدوا بين منتصف الستينيات ومنتصف السبعينيات تقريبًا، ويُطلق عليهم حاليّاً «جيلُ الشباب.» وأكثرُ شباب ذلك الجيل حظّاً يستطيع أن يتذكّر بعضَ المعلومات القليلة عن حرب أكتوبر، وكانت الواقعةُ الأساسيةُ التي شدّت انتباهَهم إلى السياسة هي اغتيالَ أنور السادات على منصّة احتفالات أكتوبر عام ١٩٨١ . أما مصر التي يعرفها ذلك الجيلُ جيِّدًا فهي مصرُ الثمانينيات في عهد الرئيس مبارك: بالتعدديةِ الحزبية المقيّدة، والتعدديةِ السياسية المنقوصة، وقانونِ الطوارئ الذي دام ربعَ قرن، والخصخصةِ، وحريةِ الصحافة المنقوصة، والعلاقاتِ التي عادت إلى مسارها مع الدول العربية، والحربِ على الإرهاب والتطرف الديني، ثم حربِ إيران ـ العراق (١٩٧٩ ـ ١٩٨٩)، فحربِ الخليج عندما دخل صدّام حسين الكويتَ غازيًا، ثم حرب «تحرير الكويت» (١٩٩٠ ـ ١٩٩١)، ونهايةِ الحرب الباردة بين الاتحاد السوفيتي وأميركا، ومن بعدها زوال الأول وظهور القطبية الأحادية متمثّلة في أميركا، وبروز ظاهرة التكتُّلات الاقتصادية والعولمة. وأخيرًا، فإنّ هناك واقعةً أخرى هامةً هي شعورُ ذلك الجيل بالمساعي الرامية إلى السيطرة على المنطقة العربية ومحوِ الهوية. فضلاً عن الحرب الأميركية على العراق، وعلى أفغانستان، وجرائم جوانتانامو ومعتقل أبي غريب، واستمرار التنكيل الإسرائيلي الوحشي بالشعب الفلسطيني.

هذه هي الوقائعُ السياسيةُ الكبرى التي عاشها ذلك الجيلُ وانعكستْ على أوضاعه وعلى تركيبته الفكرية في ظلّ معاناته البطالةَ والفقرَ والعونسة. ولذلك فإنّ السمة الأساسية لهذا الجيل هي القلقُ بفعل ضغوط مطالب الحياة، وتفاوت الأوضاع الاجتماعية إلى الدرجة التي جعلتْ أبناءه ينقسمون إلى شرائح مختلفة: فمنها ما هو سلفيّ متطرّف، ومنها ما هو أصوليّ متشدّد، أو علمانيّ فجّ، أو اشتراكيّ غير فعّال، أو سلطويّ منغمس في الفساد، أو ليبراليّ يفتقد الشعبية، أو نخبويّ لا يغادر الغرفَ المكيّفة. لكنّ ذلك المشهدَ الاقتصادي ـ الفكري دفع الغالبيةَ العظمى من هذا الجيل إلى العزوف عن المشاركة في العمل العامّ أو الحياة السياسية، وإلى فقدان الأمل في أيّ إصلاح جادّ. وهذا ما أكّدتْه نِسَبُ المشاركة في الانتخابات التي شهدتها مصرُ عامَ ٢٠٠٥.

هذا الجيل، بأوضاعه المشار إليها، يشكّل نحو ١٧ مليون نسمة من تعداد سكان مصر، أيْ ربع عدد السكّان تقريبًا. وهو الربع الذي يمثّل قوةَ العمل الأساسيةَ في مصر، ومستقبلَ البلاد في عصر العولمة وثورة الاتصالات والمعلومات.

• **الجيل الثاني** من الشباب هم الذين وُلدوا ما بين منتصف السبعينيات ومنتصف الثمانينيات، ويُطلق عليهم جيلُ الانترنت والعولمة. وأكبرُ أبناء هذا الجيل لا يَذْكر شيئًا عن الرئيس السادات وعصره، إلا ما يُشْبه أضغاثَ أحلام. وقد عاش ذلك الجيلُ وترعرع على ثقافة التعددية السياسية المقيَّدة، والقبولِ النسبي لرأي المعارضة ـ مع وجوده في ظل الضغوط الاقتصادية المتعددة التي رافقت الإصلاحَ السياسي، وفي مقدّمتها: تدنّي مستوى المعيشة وتفاقُمُ مشكلة البطالة. وقد تخرّجتْ غالبيةُ أبناء ذلك الجيل من الجامعات والمدارس المتوسّطة حديثًا، ويَطْرقون الآن أبوابَ الحياة العملية. معظمُهم

٨ ٪ فقط من الشباب المصري مسيَّسون، والباقون يخشون المشاركة في المجال السياسي!

يَحْلم بالهجرة، أو بتوفّر فرص عمل، أو بالمشاركة في الشأن العامّ على غرار ما يروْنه في شباب الشعوب الأخرى عبر الفضائيات وغيرها، لكنّ ظروفهم القاسية والخوف من ممارسة السياسة تُقْعدهم عن ذلك. ويَبْلغ تعدادُ أبناء ذلك الجيل ١٨ مليون نسمة، أيْ ربعَ عدد السكّان مرةً أخرى. ويعاني بشدةٍ غير مسبوقةٍ المشكلاتِ المتعلقةَ بأوضاع حياته في المستقبل، وحياته العملية، والأسئلة الملحّة عن طبيعة هويته وانتمائه. كما يعاني آثارَ عمليات التغريب والعولمة. ومن ثم فإنّه، في معظمه، يقف موقفَ التشتت الثقافي والفكري والسياسي.

• **الجيل الثالث** من شباب مصر هم الذين وُلدوا ما بين منتصف الثمانينيات حتى منتصف التسعينيات (تتراوح أعمارُهم ما بين ١١ سنة و٢١ سنة)، وأغلبُهم صبْيةٌ مقْبلون على مُرحلة الشباب، وبعضُهم شباب، ومازال وعيُهم في مرحلة التشكّل. غالبيتُهم في مراحل التعليم المختلفة، لكنّ بعضهم يعاني الأميةَ و١٠٪ يتسرّبون من التعليم، ويعانون أيضًا مشكلاتِ عمالة الصغار. وهم يمثّلون نحو ١٢ مليون نسمة أو أكثرَ قليلاً.

توضّح الأرقامُ أنّ هناك ٤٧ مليون نسمة في مصر يقعون في الفئات العمرية الأقل من ٤٠ عامًا نزولاً حتى ١٠ سنوات، أيْ أنّ حوالى ثلثَي الشعب المصري تقريبًا يُعدّ في فئة الشباب. وتواجِهُ أجيالُ الشباب صعابًا جمّةً، جَعَلتْ أكثرَ من ٧٥٪ منهم يَعْزفون عن المشاركة في العمل العامّ بكل صوره ـ بما فيها المشاركة السياسية. وتقوم الأميةُ بدورٍ في نشر ذلك العزوف، إذ يعاني ٢٧ ٪ من شباب مصر أميةَ القراءة والكتابة، كما تصل نسبةُ البطالة بينهم وفق بعض التقديرات إلى ١٥ ٪ من قوة العمل. فضلاً عن صعوبات أخرى مثل صعوبة توفير المسكن، والغلاء، وانعدام فرص العمل، وارتفاع تكاليف الزواج التي أدت إلى وجود أكثر من ٩ ملايين شاب وشابة تجاوزوا سنَّ الزواج ويعيشون حالةَ عونسة وفق أرقام مركز التعبئة العامة والإحصاء في مصر.

الشباب المصري... ثقافيّاً وسياسيّاً

من هم أولئك الشباب؟ وكيف يُمْكن تصنيفُهم سياسيّاً؟

وفقًا للبيانات المتاحة، فإنّ ٨ ٪ فقط من الشباب المصري أعضاء في أحزاب وقوى سياسية وجمعيات أهلية ونقابات، وهؤلاء هم النشيطون سياسيّاً. بينما سنجد أن نسبة ٩٢٪ من الشباب يخشى المشاركةَ في المجال السياسي. وهناك أكثر من ٤٧٪ من الشباب مقيَّدون في الجداول الانتخابية، بينما يوجد أكثرُ من ٥٢٪ غير مقيَّدين أصلاً. هناك أكثر من ٣٨٪ من الشباب لا يعرفون كيف يقيِّدون أنفسَهم في تلك الجداول أصلاً، و٤٢٪ صوّتوا ولو مرةً واحدةً في بعض الانتخابات، وهناك ٥٨٪ لا يتوجهون إلى صناديق الاقتراع مطلقًا ويَعْتبرون أنّ أصواتهم عديمةُ القيمة والتأثير. هناك أيضًا ٩٥٪ لا ينتمون إلى جمعية أهلية أو منتدى أو حتى مركز شبابي أو نقابة، ولا يَعْرف ٨٠٪ معنى «حزب سياسي» أو «جمعية،» و٦٥٪ لا يرون أيةَ جدوى من المشاركة في أيّ عمل سياسي. هناك ٨٪ فقط تعتبر أنّ المشاركة السياسية واجب وطني، وفي المقابل هناك ٢٧ ٪ ليس لهم رأيٌ محدد إزاء أهمية تلك المشاركة. وسنجد أنّ هناك أكثرَ من ٢٨٪ لديهم بطاقات انتخابية، بينما يوجد أكثر من ٧١٪ ليست لديهم بطاقاتٌ انتخابيةٌ من الأساس. وهناك أكثر من ٣٨٪ يقرأون الصحف، في مقابل أكثر من ٦٠٪ لا يقرأون أيّة صحيفة.

وهكذا يمكن تصنيفُ الشباب من حيث الثقافة السياسية إلى:

١) فريق ضخم عديم الثقافة السياسية، ويشكّل نحو ثلثيْ تعداد شباب مصر حاليّاً، أيْ ما يوازي نحو ٣٠ مليون نسمة.

٢) فريق آخر تتوفر لديه ثقافةٌ سياسيةٌ محدودةٌ، أو ضعيفةٌ، أو مشوّشةٌ. ويشكّل هؤلاء نحو ١٠ ملايين شاب.

٣) فريق ثالث ذي ثقافة ووعي سياسي متميزيْن. ويشكّل هؤلاء نحو ٦ ملايين.

أما من حيث المشاركة السياسية، فيُمكن تصنيفُ الشباب المصري إلى عدة فئات

الميول السياسية للشباب وغياب المشروع القومي

١) الفئة الأضخم (٩٢٪): وهي التي لا تمارس السياسة. بعضُهم يرفضها كنوع من الاحتجاج والرفض للواقع القائم، وبعضُهم يرى أنّ العمل السياسي لا يَجْلب سوى الضرر. ومن بين أبناء تلك الكتلة مَنْ تُمْكن تسميتُهم بمجموعة «الأميّة السياسية» التي لا يتوفّر لديها أيُّ وعي يحرّك شبابَها ويحفّزهم، ويمثّلون ٥٢ ٪ من تلك الكتلة الكبيرة الصامتة. وهناك عواملُ أخرى تشكّل موقفَ تلك الفئة السلبي، منها ضعفُ الأحزاب السياسية، والقيودُ القانونية التي تحظر ممارسةَ السياسة في الجامعات والأماكن العامة، وضعفُ قنوات الاتصال بين الشباب، وغيابُ هدفٍ موحّدٍ مُلْهِم.

٢) الفئة الثانية (٨ ٪): وهي التي تشارك بفاعلية في العمل العامّ من خلال القنوات السياسية المتاحة. ويتوزّعون على «الحزب الوطني» الرسمي، أو التيار الإسلامي، أو حزب الوفد، أو «التجمُّع،» وغير ذلك. وينتمي ١٣٪ من أصل تلك الفئة إلى التيارات السياسية الشرعية على النحو التالي: ١/ فقط ينتمي إلى التيار اليساري، ٢/ إلى حزب الوفد، ٣٪ إلى التيار الناصري والقومي، و ٧/ إلى الحزب الوطني الحكومي. بينما ينتمي ١٢/ إلى تيارات وحركات محظورة أبرزُها الإخوان المسلمون، والجماعات الإسلامية كالجهاد، والتكفير والهجرة، أو التيار الإسلامي المتطرف.

أما من حيث تأييد الشباب لهذا الخطاب السياسي أو ذاك، فسوف نلاحظ:

- أنّ ٥٥ / من الشباب يؤيّدون الخطابَ السياسي لتحالف حزب الوفد والحزب الناصري وحزب التجمع، رغم أنّ عضوية الشباب في أحزاب المعارضة لا تزيد وفق استطلاعات الرأي العام عن ٦٪ من مجمل الشباب المستطلعة آراؤهم.

- ومن ناحية أخرى فإنّ هناك ٢٨/ من الشباب المستطلعة آراؤهم يؤيّدون الخطابَ السياسي لجماعة الإخوان المسلمين وشعار «الإسلام هو الحلّ،» إلا أنّ حجم عضوية أولئك الشباب في جماعة الإخوان لا يتجاوز ١١/.

- على الرغم من تأييد ١٥٪ من الشباب المستطلعة آراؤهم لخطّ الحزب الوطني الحكومي، إلاّ أنّ حجم عضويّتهم في ذلك الحزب لم يتجاوز ٧٪. ويعود ذلك بشكل عام إلى عزوف ٧٥/ من الشباب عن العمل السياسي من الأساس، وإلى تقديرهم أنّ كلّ التيارات السياسية الموجودة غير قادرة على التعبير عمّا يريدونه أو يتصوّرونه لمصر. كما أنّ تلك التيارات والأحزاب تفتقر إلى المصداقية أو الفاعلية أو الأمريْن معًا.

غياب المشروع القومي

الملاحَظ أنّ لعزوف معظم الشباب عن العمل السياسي سببًا آخر، هو أنّ ما يُطرح على الساحة من مختلف أشكال الخطاب السياسي لا يَنْطوي على مشروع وطني، قومي، يُمْكن أن يَحْشد الشبابَ من حوله. ولذلك، لم يكن مستغربًا أن يَبْرز ذلك الحنينُ إلى مشروع عامّ، مشترك، عبر ظواهر أخرى، جانبية، مثل احتشاد الشباب بشكلٍ غيرِ مسبوق في استاد القاهرة الرياضي خلال بطولة الأمم الأفريقية خلف الفريق المصري، أملاً في فوزه. إنّ تلك الحرارة وذلك الحماس اللذيْن التفّ بهما الشبابُ حول ظاهرة فوز فريق كرة القدم قد حَطّما الفكرةَ السائدةَ القائلة بأنّ الشباب في مصر فاقدون للانتماء، ويتّسمون بالسلبية. والأرجح أنّ الشباب وَجَدوا في كرة القدم، وفي احتمال فوز فريقهم، وفي فوزه بالفعل ببطولة كأس الأمم الأفريقية، مشروعًا مشتركًا لا يَقْبل القسمةَ، حتى وإنْ كان مجردَ مشروعٍ معنوي. بينما لا تقدِّم المشاريعُ السياسيةُ المطروحة ملامحَ مشروعٍ إصلاحي أو قومي أو تنموي ضخم. ويُظْهر ذلك بوضوح ضرورةً بناء مشروع قومي مصري للنهضة والتحديث والإصلاح قادرٍ على تحفيز الشباب للمشاركة السياسية

مختار شعيب

كاتب صحفي في جريدة **الأهرام**. له عديد من المقالات والدراسات حول أوضاع الشباب في مصر.

الشباب وحركات التغيير الجديدة

مدحت الزاهد

I ـ تقديم: خلفيّة التغيير

«الشباب» تعبيرٌ جذّابٌ لارتباطه بأحلام التغيير والثورة والتمرّد، لكنّه فضفاضٌ من الناحية العلمية. فالشباب فئةٌ عمريةٌ، لكنّه لا يمثّل كتلةً اجتماعيةً متجانسة: فهناك شبابُ رجال الأعمال، وشبابُ العمّال والفلاّحين والطلبة، وشباب الموظّفين، وشبابُ العاطلين عن العمل. ومن الناحية السياسية فإنّ هناك شبابًا ينتمون إلى الجهاد والإخوان المسلمين، أو إلى أحزاب المعارضة العلنية مثل التجمُّع والوفد والناصري والغد. وهناك شباب انصرفوا عن أية مشاركة سياسية، وهم المعروفون بـ «الكتلة الصامتة.» وهناك أيضًا شبابٌ ضاقوا بالمعادلة السياسية واستغنَوْا عن الأحزاب، فشاركوا في شقّ قنوات جديدة لحركات الاحتجاج ومنظمات حقوق الإنسان والجمعيات الأهلية وحركة المجتمع المدني وجماعات التغيير التي ارتفع صوتُها في مصر خلال الأعوام الأخيرة.

وتأتي حركاتُ التغيير الجديدة مشروطةً أولاً بالظروف الاقتصادية الصعبة التي يعيشها الشبابُ المصري، وبالظروف الفكرية التي هُزمتْ خلالَها مشاريعُ التحرر الوطني والقومي ومشاريعُ التغيير الاشتراكي، ثم بضعف تأثير الأحزاب التقليدية وإيديولوجيّتها. وأخيرًا فقد ارتبط ظهورُ تلك الحركات الجديدة باشتداد الهجمة الاستعمارية على المنطقة، ونشوءِ جنينٍ لعولمةٍ إنسانيةٍ بديلةٍ تكافح تلك الهجمةَ داخل المنطقة وخارجها وتبتكر ـ بمنظومة فكرية مغايرة ـ طرقًا جديدةً للتصدّي للهيمنة. وبعد أن بدا لسنوات طويلة أنّ الأفق مسدود أمام الشباب للتعبير عن وجوده السياسي، تحرّكت الشريحةُ الأكثر يقظةً منه لحفر مسار آخر للعمل السياسي خارج النظام السياسي الرسمي حكومةً ومعارضةً. وسنحاول فيما يلي رصدَ أهمّ تلك الحركات.

II ـ حركات جديدة

١ ـ **اللجنة الشعبية لدعم الانتفاضة.** قد يكون جديرًا بالذكر أنّ أولى الحركات الشبابية المصرية الجديدة قد وُلدتْ تحديدًا في بوتقة مواجهة الوحشية الصهيونية في فلسطين. ويُعدّ ذلك مؤشّرًا هامًّا إلى أنّ الشباب يضعون القضيةَ الوطنيةَ والتصدّي للاستعمار في المقام الأول. فقد فَجَّرَ الهجومُ البربري على فلسطين عامَ ٢٠٠٠ موجةَ سخطٍ عارم، أدّت إلى ظهور «اللجنة الشعبية المصرية لدعم الانتفاضة الفلسطينية» في ١٣ أكتوبر من العام ذاته بمبادرة من مجموعةٍ من المثقفين مستقلةٍ عن الحكومة والأحزاب، تجتمع على هدف سياسي عريض هو تأييدُ الانتفاضة الفلسطينية بكلّ الطرق. وسرعان ما اتّسعت المبادرةُ بانضمام عمّال وفلاّحين وموظّفين وطلبة من مختلف محافظات مصر إليها، واتّفق الأعضاءُ المؤسِّسون أن تعمّ الدعوةُ مختلفَ المحافظات دون أن يَرْبط بينها البناءُ التنظيمي الهرمي، بل علاقاتُ التنسيق فحسب.

وقد تنوّعتْ أشكالُ دعم «اللجنة» لنضال الشعب الفلسطيني، بدءًا من عقد المؤتمرات والندوات، وصولاً إلى إرسال قوافل المساندة التي بدأتْ بقافلة في ٢٦ نوفمبر تحرّكتْ من القاهرة إلى العريش فمدينة رفح في مسيرة جماهيرية ضمّت آلافَ المواطنين لتسليم موادّ المعونة إلى مسؤول فلسطيني. وقامت اللجنة بحملةِ المليون توقيع لمطالبة الرئيس مبارك بطرد السفير الإسرائيلي من القاهرة، وتجميدِ كلّ أشكال التطبيع مع العدوّ الصهيوني. كما طالبتْ كوفي عنان، الامينَ العامَّ للأمم المتحدة، بتوفير الحماية الدولية للفلسطينيين تحت الاحتلال وتنفيذِ كلّ مقرّرات الأمم المتحدة الخاصة بحقّ الشعب الفلسطيني في تقرير مصيره وإقامةِ دولتِه وحقِّ اللاجئين في العودة. وقد حقّق نشاطُ اللجنة نجاحًا كبيرًا بين الشباب في مختلف المحافظات والمناطق الريفية. ولجأت «اللجنةُ» أيضًا إلى المسيرات التي تَحْمل عرائض الاحتجاج، كما حدث في ٢٠٠١/٢/٢٨، حين توجّهتْ وفودٌ منها إلى القصر الجمهوري ومبنى الأمم المتحدة. ونَظّمتْ مظاهراتٍ شارك فيها مثقفون وممثلو أحزاب أمام مقرّ الجامعة العربية في ذكرى النكبة. وأقامت المهرجانات السياسية والفنية، واستخدمت الاعتصام وغيرَه للاحتفال بالذكرى الأولى للانتفاضة الأكثر من ذلك أنّ اللجنة استخدمتْ أشدَّ ألوان الاحتجاج، وهو الإضرابُ عن الطعام في ٢٠٠١/٣/٢٩ في ذكرى يوم الأرض، للتنديد بالحصار الإسرائيلي على الشعب

الفلسطيني وإغلاق مَعْبر رفح في وجه قافلة الدعم الشعبي الثانية التي وصلت العريشَ في ٢٠٠١/٣/٢٣.

وعملياً، فإنّ اندفاعَ الشباب من مختلف الروافد إلى تلك التجربة، وحماسَه لها، أَرْسَيا كلَّ أساليب عمل الحركات الجديدة اللاحقة على تجربة «اللجنة الشعبية لدعم الانتفاضة» كما بيّنت التجربةُ أنّ هناك خطّاً سياسيّاً يُعنى بالموضوع الوطني بالدرجة الأولى، وأنّ ذلك الخط سوف يواصل بقاءه بل وصراعَه مع خطوطٍ أخرى ستَشْهدها الحركاتُ الجديدة.

٢ ـ المجموعة المصرية لمناهضة العولمة. لم يكن لـ «اللجنة الشعبية لدَعْم الانتفاضة» أن تستمرّ طويلاً مع غياب شكل تنظيمي مُحْكم، ومع الانحسار النسبي للعدوان الإسرائيلي الذي اتّحدتْ في مواجهته. وهكذا التقت في خريف عام ٢٠٠١ مجموعةٌ أخرى من المثقفين لتشكّل «حركة أجيج،» وهو اختصارٌ عربيٌّ للتسمية الإنجليزية: «المجموعة المصرية لمناهضة العولمة.» هنا سنَلْمس بعدًا آخرَ من وعي الشباب السياسي، أيْ إدراكه لذلك التشابك المحليّ والعالميّ في مهمة التصدّي للهيمنة. واعتَبَرت المجموعةُ أنّ العولمة مفهومٌ يشير إلى محاولة القوى الاقتصادية الكبرى، وعلى رأسها أميركا، للاستحواذ على موارد وأسواق العالم واحتكارها وإزالةِ أيّ موانع حدودية أو دولية تعوّق ذلك الاستحواذَ، الأمرُ الذي يزيد من بؤس شعوب العالم وخاصةً في البلدان النامية. وقد عَدَتْ «أجيج» نفسَها جزءًا من الحركة العالمية المناهضة للعولمة ومؤسساتها، خاصةً صندوق النقد الدولي والبنك الدولي ومنظمة التجارة العالمية.

أقامت «أجيج» عدةَ ندواتٍ ومؤتمراتٍ دولية لتأييد نضال الشعبين العراقي والفلسطيني، وعَقدتْ صلاتٍ مع بؤر مناهضة العولمة في العالم، وشاركتْ في الأنشطة المعارضة للعولمة خارج مصر في منتديات پورتو أليغري وبومباي والاجتماع الأخير لمنظمة التجارة العالمية فى هونغ كونغ. كما أصدرتْ عدةَ كتيّبات هامة منها: **فضح التريبس** (اتفاقية إهدار حق المواطن في العلاج)، و**فضح الكويز** (الاتفاقية الاقتصادية التي تُلْزم مصرَ بإدخال عناصر إسرائيلية في إنتاجها لقبول ذلك الإنتاج في أوروبا)، وغير ذلك. وللمجموعة موقعٌ على شبكة الانترنت.

٣ ـ حركة ٢٠ مارس. من الطريف ملاحظةُ كيفيةِ تصاعد موجة اهتمام الشباب بالقضايا الوطنية في ظروف محدَّدة، وكيفيةِ تراجعها. فقد كان الموضوعُ الفلسطيني هو الذي أشعل حركةَ «اللجنة الشعبية لدعم الانتفاضة» كما رأينا، بينما نشأتْ «حركةُ ٢٠ مارس» عامَ ٢٠٠٣ في أعقاب الغزو الأميركي للعراق. فقد اتفق الشبابُ عبر رسائل المحمول على الخروج في اليوم التالي للغزو والاحتشاد في ميدان التحرير احتجاجًا على العدوان؛ ومن هناك توجَّهوا إلى مبنى السفارة الأميركية، حيث وَقعتْ مواجهةٌ شرسةٌ مع الشرطة المصرية. وتكرَّر المشهدُ ذاتُه في ساحة مسجد الأزهر. ثم امتدت الحركة إلى النقابات والمدن الأخرى.

والحقّ أنّ هذه الحركة ظهرت عمليّاً باعتبارها امتدادًا للدور السابق «للجنة الشعبية لدعم الانتفاضة،» ومحاوَلةً لتوحيد تلك الحركات الجديدة في جهدٍ واحد. وعملت الحركةُ تحت شعار: «ليكن ٢٠ مارس يومًا للاحتجاج الشعبي ضدّ الاستغلال والاستبداد على أرض مصر، وضدّ الاحتلال الأميركي ـ الصهيوني على أرض العراق وفلسطين.»

٤ ـ حركات مختلفة في عام الغزو الأميركي للعراق. كان عامُ الغزو الأميركي للعراق عامًا لاتساع ظهور حركات احتجاجية عديدة في مصر رَبَطَتْ بين قضايا الاستعمار والأوضاع الداخلية. ومن هذه الحركات: «حركة استقلال الجامعات،» وحركة «مهندسون ضدّ الحراسة،» و«اللجنة المصرية لمناهضة الاستعمار والصهيونية» التي تأسّستْ في ٢٠٠٣/٣/٢٤. ورغم أنّ نشاطَ هذه اللجنة وتأثيرَها في الشارع والجامعات ضعيف، إلاّ أنّها تشبّثتْ بطرح وجهة نظر محدَّدة أَبرزتْ خلالها قضيةَ المواجهة مع الاستعمار الأميركي والصهيونية باعتبارها القضيةَ الرئيسيةَ الأولى، وأنّ حلّ المشكلات الأخرى مرتبط بعمليةِ حسم الصراع مع الاستعمار كما شَدّدت اللجنةُ المذكورة على أنّه لا وجود للديموقراطية في ظلّ الاحتلال أو التبعية إلا شكلاً، وعلى أنّ الديموقراطية «صارت في المصطلح الأميركي اسمًا حركيّاً للاحتلال أو إملاءِ الشروط الاستعمارية تحت التهديد بالاحتلال.» واعتَبرت «اللجنةُ» أنّ دعم المقاومة العراقية هو المحورُ الأولُ في

الحركات المصرية الجديدة غير حزبية بالمعنى الهَرَمي القديم، وتحاول أن تتجاوز أزمةَ اليسار القديم ـ فكراً وعملاً.

أيّ حديثٍ أو مشروعٍ للتغيير أو الإصلاح السياسي، ودَعَتْ إلى اعتبار المقاومة العراقيّة ـ وعلى رأسها المقاومة المسلّحة ـ الممثّلَ الشرعيَّ والوحيد للشعب العراقي. وقد اقتصر نشاط اللجنة على إصدار البيانات والدراسات، وإقامة الندوات والمؤتمرات.

في الوقت ذاته ظَهرتْ حركاتٌ أخرى، كان تشكيلُها إشارةً واضحةً إلى انتقال عدوى النشاط إلى قطاعات جديدة من المثقفين مثل «حركة استقلال الجامعات.» تأسّستْ هذه الحركة عامَ الغزو في مارس، بمبادرة من عدد من أعضاء هيئات التدريس بجامعات مصر، لانتزاع استقلال الجامعات الفكري والإداري بعيدًا عن قبضة الدولة وأجهزة الأمن. وقد اختارت «٩ مارس» اسمًا لها تخليدًا للوقفة التاريخية للمفكّر أحمد لطفي السيِّد، وهو أوّلُ رئيسٍ لجامعة القاهرة (فؤاد الأول سابقًا)، احتجاجًا على تدخّل وزير المعارف حينذاك في شؤون الجامعة يوم ٩ مارس ١٩٣٢، عندما نقل الدكتور طه حسين عميد كلية الآداب من الجامعة إلى ديوان الوزارة، وقُبِلت استقالتُه، وظلّ خارج الجامعة حتى عام ١٩٣٥. وترسّخ تلك الحركةُ مفهومَ الاستقلال الفكري والعلمي والإداري والسياسي للجامعة المصرية، وقضايا البحث العلمي ومشكلاته، وأعدّت في ٩ مارس ٢٠٠٦ مؤتمرًا حول الحريات الأكاديمية. وقد حَقّقت الحركة نجاحًا ملحوظًا في خلق حالة من التفاعل بين مئات من أساتذة الجامعة الشباب، وفي عقد الاجتماعات، والخروج في مسيرات داخل الحرم الجامعي ـ وهو أمر كان مستحيلاً منذ سنوات. كما تمكّنتْ من فرض مطالب لها، مثل حصول عدد من الطلبة المتفوّقين على حقّ التعيين كمعيدين رغم أنف تقارير الأمن. وواجهت الحركةُ حظرَ الأنشطة الطلابية وسيطرةَ أجهزة الأمن على الانتخابات الطلابية. وليس للحركة قيادةٌ تنظيمية أو رئاسة، وإنْ كانت قد ظهرتْ بمبادرةٍ من الدكتور محمد أبو الغار.

وفي عام الغزو أيضًا ظَهرتْ حركةٌ مماثلةٌ هي حركة «مهندسون ضدّ الحراسة،» وتشكّلتْ من ثلاث كتل سياسية هي: المهندسون اليساريون، والإخوان، والقوميون. وسعت إلى استنهاض المهندسين وتجميعهم للتصدّي بشكل جماعي للدفاع عن مصالحهم، واستعادة النقابة من سيطرة الحراسة المفروضة عليها. وقد نجحتْ مؤخّرًا في تحقيق مطلبها. ولعلّ «حركة قضاة مصر» لاحقًا إنّما ظهرتْ بتأثير من إشعاع هاتيْن الحركتيْن.

٥ ـ حركات أعم وأكبر. وثمة أيضًا حركاتٌ أعمُّ وأكبر أبرزها:

أ ـ الحملة الشعبية من أجل التغيير. عامَ ٢٠٠٤، كان قد أصبح واضحًا أنّ في مصر حالةً سياسيةً نشطةً تعبِّر عن نفسها في غير مكان وغير طريقة، وأنّ تلك الحالة قد تَسْمح بحشدٍ أكبر لذلك الوجود السياسي. ومن هنا نشأت «الحملةُ الشعبيةُ من أجل التغيير» تحت شعار: «لا للتمديد لمبارك. لا لتوريث الحكم. الحرية الآن!». وجاء في البيان التأسيسي للحركة في ٩ سبتمبر: «لقد أصبح واضحًا بعد ٢٤ سنة من حكم الرئيس مبارك أنّ هذا النظام يقف عقبةً أمام فرص التغيير والتطوير الذي تحتاجه بلادُنا لمواجهة التحدِّيات التي تواجهها من مشكلات اقتصادية واجتماعية أدّت إلى استشراء الفساد وتدهور المرافق والخدمات وانفجار غول الأسعار وتردِّي مستوى معيشة المواطنين وتفاقم مشكلة البطالة، في الوقت الذي تواجه فيه تحدّياتٍ خارجيةً تهدِّد أمنَها الوطنيَّ وتتمثّل في استمرار السياسات العدوانية للدولة الصهيونية والاحتلال الأميركي للعراق.»

وحدّدت الحركةُ مطالبَها في:

«١ ـ تعديل الدستور بما يَسْمح بانتخاب رئيس الجمهورية من بين أكثر من مرشح، على ألاّ تتجاوز فترةُ رئاسته دورتين، وتقليص صلاحيات رئيس الجمهورية بما يَضْمن الفصلَ الحقيقيَّ ما بين السلطات. ٢ ـ إلغاء حالة الطوارئ وكافة القوانين المقيِّدة للحريات، والإفراج عن جميع المعتقلين والمسجونين في قضايا الرأي. ٣ ـ تعديل قانون مباشرة الحقوق السياسية بما يَكْفل الإشرافَ القضائيَّ الكامل على كافة مراحل الانتخابات »

ب ـ حركة كفاية. كانت مجلة الآداب قد خَصّصتْ ملفّاً قبل عام لحركة «كفاية» المصرية، ما لها وما عليها. ومع ذلك، فإنّ الإشارة إلى تلك الحركة هنا أمرٌ ضروريٌّ في سياق رصد الحركات الجديدة التي استوعبتْ أقسامًا واسعةً من الشباب. وقد تأسّست الحركة في ديسمبر ٢٠٠٤، بعد ظهور «الحملة الشعبية» المذكورة

أعلاه. وأشارت في بيانها التأسيسي إلى مخاطر الغزو والاحتلال الأميركي للعراق، والعدوان المستمرّ على فلسطين، وإلى مشاريع إعادة رسم خارطة الوطن العربي، ثم الاستبداد الشامل الذي يَحْكم مصرَ ويَسْتلزم إصلاحًا سياسيّاً يبدأ بتغيير الدستور وإنهاءِ احتكار السلطة والثروة. وقد تميزتْ «كفاية» بتحدِّيها للقيود المفروضة على التظاهر والاحتجاج في الشارع، واستطاعت بذلك جذبَ قطاعاتٍ عريضةٍ من الشباب والأنصار. ثم أنشأتْ بعد ذلك حركةً موازيةً لها هي «شباب من أجل التغيير» في يونيو ٢٠٠٥، وحركاتٍ أخرى مثل: «محامون من أجل التغيير،» و«أطبّاء من أجل التغيير،» و«نساء من أجل التغيير،» و«جامعيون من أجل التغيير،» و«رابطة الأمّهات المصريات» التي أصدرتْ بيانًا واحدًا ثم اختفت... بل وأنشأتْ حركةَ «أطفال من أجل التغيير» التي ظَهرتْ في يوليو ٢٠٠٥، ونشرت الصحفُ أنّ مؤسِّسها طفلٌ ابنُ لأحد المعتقلين، وسمِّيتْ بـ «كفاية الصغيرة!»

ج ـ شباب المثقفين. على الصعيد الثقافي برزتْ حركة «كتّاب وفنّانون من أجل التغيير» في ٢٠٠٥/٦/١٩، وضمّت ممثّلين عن مختلف أجيال الكتّاب، ووقّع بيانَها التأسيسي عددٌ من الشعراء والروائيين والفنانين منهم: أحمد فؤاد نجم، وبهاء طاهر، وإبراهيم أصلان، وأحمد الخميسي، ومحفوظ عبد الرحمن، وسمير مرقص، والمخرجان السينمائيان داود عبد السيد وعلي بدرخان. وأشار بيانُها إلى «أشواق المجتمع المصري إلى الحرية والتغيير،» وشَدَّد على رفض التمديد للرئيس مبارك وتوريث الحكم لابنه جمال. كما أكَّدَ حقَّ المواطنين في التظاهر السلمي والإضراب وكافة أشكال التعبير عن الرأي، مطالبًا بإلغاء قانون الطوارئ وكافة القوانين المقيِّدة للحريات، والإفراج عن المعتقلين السياسيين، ورفض كافة أشكال التدخل الأجنبي في الشأن الوطني المصري، ورفض التطبيع مع «العدو الصهيوني.»

ويُمْكن أن نضمّ إلى ذلك النوع من التحرك الثقافي ظهورَ جماعة «صحفيون من أجل التغيير،» و«جماعة ٥ سبتمبر » وقد تكوَّنتْ هذه الأخيرةُ لتقصِّي الحقائق في حادثة حريق مسرح بني سويف التي أدّت إلى مصرع نحو ثلاثين مسرحيّاً.

III ـ ملامح مشتركة؟

من الصعوبة بمكانٍ تحديدُ التمثيل النسبي للشباب المصريّ في كلّ تلك الحركات الجديدة. وأسبابُ ذلك عديدة، أوّلُها غيابُ أيّة إحصائيات وثانيها تداخُلُ وتعدُّدُ عضوية الفرد ذاته؛ فالعضو في حركة «صحفيون من أجل التغيير» قد يكون عضوًا في حركة «كفاية،» وفي حركة «أدباء وفنانون،» وغير ذلك. فعلى سبيل المثال فإنّ محمد فرحات عضوٌ في «كفاية» وعضوٌ أيضًا في حركة «شباب من أجل التغيير» وعضوٌ كذلك في الحزب الناصري!

تنظيميّاً، أولُ ما يَلْفت النظرَ في تلك الحركات الجديدة أنّها غيرُ حزبية بالمعنى الكلاسيكي للحزبية، أيْ لا تَعْتمد على البناء التنظيمي الذي يرتفع من القاعدة إلى القمة، بل هي أقرب إلى علاقات التنسيق والتعاون، مع وجود قيادة مؤثِّرة. كما أنّ أشكال عملها لا تتّسم بالثبات والديمومة. ثم إنّ أساليب ذلك العمل تختلف عمّا سبق، إذ تعتمد على شبكةِ الانترنت، ورسائلِ المحمول، إضافةً إلى المظاهراتِ، والضغوطِ الجماهيرية بهدف التغيير السلمي.

أمّا فكريّاً، فتتضمّن تلك الحركاتُ الجديدةُ توجُّهاتٍ وتياراتٍ قديمةً تَنْشط في أوعية جديدة، بدرجات من الاختلاف والتوافق، يرتسم خلالها مشروعٌ فكريٌّ مشتركٌ يضمّ شبابًا من مختلف المشارب الناصرية والماركسية والدينية والقومية. ويعتمد مشروعُ هؤلاء الشباب المشترك على مبادئ عامة. كالدعوةِ إلى الديموقراطية والإصلاح، والوعيِ بالطبيعة الموضوعية لصلات التأثير المتبادل بين قوى العالم، والرفضِ المشترك لسياسات النظام المصري ويَبْرز من ذلك خيطٌ من محاولات يسارية لتجاوز أزمة اليسار القديم، من حيث الطرحُ الفكري أو أساليبُ العمل. ويثير كلُّ ذلك حراكًا يَجْعل تلك الحركات هي الأكثرَ مرونةً داخل الحقل السياسي، والأكثرَ جاذبيةً للشباب المصري ومن الواضح أنّ معظم هذه الحركات يرتبط بهدف محدَّدٍ، أو موقَّت، أو بظرف سياسي ومع ذلك فإنّ معظمها قد نجح في أن يكون شرارةً تُومِضُ على الطريق. . دون أن تبلغ نهايتَه.

مدحت الزاهد

كاتب وصحفي. رئيس تحرير جريدة **التجمع** المصرية.

الشباب والسياسة في مصر المعاصرة

أحمد بهاء الدين شعبان

الطلاّب والشباب: وصفٌ للأوضاع في مصر

لعب الشبابُ المصري، ولاسيّما الحركةُ الطلاّبية، دورًا كبيرًا في التاريخ المصري المعاصر. فقد رفعوا شعارات المطالبة بـ «الاستقلال» (أيْ تحرير الوطن من الاستبداد الخارجي)، و«الدستور» (أيْ تحرير الوطن من الاستبداد المحلي) وبلغ هذا الدور ذروتَه لاحقًا مع تأسيس «اللجنة الوطنية العليا للعمّال والطلبة» (١٩٦٤) التي قادتْ العملَ الوطني وانحازت إلى الطبقات الشعبية والكادحة. وكان ذلك أحدَ المهدِّدات الرئيسية للتحرُّكات التي انتهت باستيلاء «الضبّاط الأحرار» على الحكم عامَ ١٩٥٢.

مرّت العلاقةُ بين الشباب والدولة في مصر، خلال العقود الخمسة والنصف الأخيرة، بمرحلتين شديدتَي التباين في المضمون، وبالغتَي التناقض في التوجُّهات الأساسية:

الأولى بدأتْ مع فجر ٢٣ يوليو عامَ ١٩٥٢، حيث سعت السلطةُ «الشابّةُ» الجديدةُ إلى احتواء جيل الشباب داخل إيديولوجيَّتها السياسية وأُطُرها التنظيمية باعتباره «جيلَ الثورة،» الذي تُعِدُّه على مثالها، وتهيِّئُه لحملِ رايتها، والحفاظِ على مبادئها.

والثانية بدأتْ بوفاة الرئيس جمال عبد الناصر، واعتلاءِ السلطة رئيس جديد هو أنور السادات. وقد حَكَمَ السادات منفردًا منذ مايو (أيار) ١٩٧١، بعد نجاحه في الإطاحة بمنافسيه من كِبار مساعدي الرئيس الراحل، فتبنّى مضمونًا فكريّاً وطبقيّاً مغايرًا للتوجُّهات الناصرية السابقة. إنّه مضمونٌ انقلب بصورة دراماتيكية على محتوى الناصرية الإيديولوجي، وعلى قاعدتها الاجتماعية وأنصارها السياسيين ـ وفي مقدِّمتهم الشبابُ، الذين بادلوا أنورَ السادات، منذ اللحظة الأولى، نفورًا بنفور فقد تعامَلَ معهم باعتبارهم من جماعات «الأفندية» و«الأرذال» الذين يَحْسن حصارُهم والشكُّ في أفكارهم وميولهم. أما هم فاعتبروه ممثِّلاً لـ «الثورة المضادة،» وقد وَصَلَ إلى السلطة لتحقيق هدفٍ رئيسي في رأيهم هو فتحُ الطريق أمام «بولدوزر» التسوية الأميركية ـ الصهيونية مع اليمين العربي، و«تصفيةُ القضية،» والارتماءُ في أحضان الولايات المتحدة، التي رنا إليها السادات باعتبارها صاحبةَ «٩٩٪ من أوراق اللعبة» على حدّ قوله! ولذلك لم يكن مستغربًا أن تتردّى العلاقةُ بين الطرفيْن. فشهدتْ بدايةُ حكم السادات الانتفاضةَ الوطنيةَ الطلابيةَ في يناير (كانون الثاني) ١٩٧٢ طلبًا للديموقراطية والقتالِ ضدّ العدو الصهيوني واستردادِ الأرض المحتلة ثم تلتْها انتفاضةُ ١٨ ـ ١٩ يناير الشعبية، التي أَطْلق عليها السادات وصفَه الشهير. «انتفاضة الحرامية.» هذا من جهة اليسار. أما من جهة اليمين، فقد انتهى حكمُ السادات بالرصاصات القاتلة في ١٩٨١/١٠/١، في العرض العسكري المخصَّص لذكرى حربـ «ـه» عامَ ١٩٧٣.

ومع صعود الرئيس حسني مبارك إلى سدّة الحكم، اعتمد الرئيسُ الجديدُ «مبدأً» صكّه الرئيسُ الراحلُ وبدأ في تنفيذه أثر الانتفاضات الطلابية العارمة أوائلَ السبعينيات: «الطالب طالب علْم وبَسْ (!)،» و«لا علم في السياسة ولا سياسة في العلم.» وهكذا رُسمتْ سياسةٌ رسميةٌ واضحةٌ ومبرمجةٌ لتفريغ الجامعة والمدارس الثانوية من كلّ الأفكار والاتجاهات السياسية، وتجويفها من حسّ الانتماء إلى الوطن ومن دواعي التفكير ودوافع الوعي العامّ. فأُلغيتْ كلُّ مواد «التربية الوطنية» و«القومية،» ومُنعتْ كافةُ الأنشطة ذات الطبيعة السياسية المباشرة وغير المباشرة... باستثناء تلك التي تحتوي مضمونًا دينيّاً معاديًا لليسار، أو تصبّ في تمجيد «أولي الأمر» والحضّ على طاعتهم وتكرِّس الاتّكاليةَ. واستُبدلت اللائحةُ الطلابيةُ (لائحة ١٩٧٦)، المتقدِّمة نسبيّاً، بلائحةٍ متراجعةٍ (لائحة ١٩٧٩)، تحاصِر العمل الطلابيّ المستقلّ، وتضعه تحت هيمنة الأمن والإدارة. وكُثِّفت الدعايةُ للنظام بأشكالها المتعددة. واستُنزفتْ طاقاتُ الشباب في أنشطةٍ ذاتِ طبيعةٍ ترفيهية وسطحية، بعيدًا عن إثارة الخيال وتعميقِ الثقافة وتثبيت الرؤية النقدية للوقائع والحياة، في إطار الترويج لنمط الحياة الأميركي الاستهلاكي الشكلاني في الملبس والعادات والأطعمة والأفكار.

وكان طبيعيّاً، والحالُ هذه، أن تنتعش الأصوليةُ الفكريةُ، وأن تنتشر الأفكارُ السلفيةُ، التي رأى فيها النظامُ وسيلةً مأمونةً لكبح جماح الحركات الطلابية اليسارية التي سيطرتْ على

الشباب والسياسة في مصر المعاصرة

الجامعة طوال السبعينيات. واستمرّ هذا الحال طوال الثمانينيات والتسعينيات تقريبًا، الأمرُ الذي وَسَمَ الجامعةَ وثقافتَها طوال هذيْن العقديْن بصبغة «إسلاموية» واضحة، تمثّلتْ في ارتداءِ ما تعارفتِ التياراتُ الإسلامية على اعتباره «الزيَّ الإسلاميَّ» المعتمدَ للطلاّب والطالبات. وانتشرتْ مظاهرُ التديُّن: إطلاقُ الطلاب لِحاهم، وارتداءُ الطالبات الحجابَ (أو النِّقابَ). وفُصِل بين الجنسيْن في مواقع كثيرة (أبرزُها كليات الطب!). وانتشرتْ كتبُ الدعاية الدينية والسياسية ذات التوجُّهات المحافظة والمتطرِّفة. وفُتحتْ مدرَّجات الجامعة ـ التي سبق أن استقبلتْ في السبعينيات الشيخَ إمام، والشاعرَ أحمد فؤاد نجم، ومفكِّري اليسار والناصرية، ومنظَّماتِ الثورة الفلسطينية، وممثِّلي حركات التحرير العالمي في أنجولا وموزمبيق وغيرهما ـ كي يرتادها الشيخُ الغزالي والشيخُ الشعراوي، إضافةً إلى شيوخ التطرُّف الديني والفكري والسياسي، وبرعاية الدولة وحمايتها. ولم يتراجعْ هذا التوجُّه إلاّ بعد أن تصاعدتْ وتيرةُ العمليات الإرهابية، التي نظَّمتْها جماعاتٌ ذاتُ طبيعةٍ دينيةٍ أصولية، وكَبّدتِ المجتمعَ خسائرَ ماديةً وأدبيةً هائلة.

كان للتحوُّلات العميقة التي طاولتْ وضعيةَ الشباب والطلاب طوال العقود الأخيرة في مصر، وعلى النحو الذي وصّفناه باختصارٍ آنفًا، انعكاسٌ مباشرٌ على اهتماماتهم ومواقفهم السياسيةٍ والاجتماعية. فهذه الأخيرة شهدتْ تراجعًا واضحَ الدلالة، إذْ أفلحت الاستراتيجياتُ النظاميةُ التي استهدفتْ محوَ مقوِّمات الوعي العامّ في دفع الأغلبية العظمى من المواطنين ـ وفي القلب منهم الشبابُ والطلابُ ـ إلى إدارة الظهرِ للسياسة، خاصةً مع التعاظم التدريجي لأكلافِ الاشتغال بها؛ ومن هذه الأكلاف: المطاردةُ، والاعتقالُ، والتعذيبُ، والفصلُ، والتشريدُ، والمنعُ من التوظف . وصولاً إلى القتل أحيانًا، كما حَدَثَ في المظاهرات الطلابية المؤيِّدة للانتفاضة الفلسطينية وضدّ الحرب على العراق.

وفي هذا السياق تشير دراساتٌ حديثةٌ أُجريتْ على عيِّنةٍ تضمّ نحو خمسة آلاف شاب ينتمون إلى سبع مناطق مَثّلتْ أقاليمَ مصر المختلفة؛ ودراسةٌ دكتوراه قدَّمها مؤخّرًا الباحث علاء عبد المجيد يوسف إلى كليّة الإعلام بجامعة القاهرة؛ وثانيةٌ أعدّتها وزارةُ الشباب عن «مشاركة الشباب في العمل السياسي»؛ وثالثةٌ أعدّها مختار شعيب، الباحثُ بمركز الدراسات السياسية والإستراتيجية بجريدة **الأهرام**؛ ورابعةٌ أعدّها فريقُ عملٍ بحثيّ متكامل بالمركز القومي للبحوث الاجتماعية والجنائية (صدرتْ في القاهرة عام ٢٠٠٥) عنوانُها «المصريُّ المعاصر، مقاربة نظرية وإمبيرقية لبعض أبعاد الشخصية القومية المصرية»؛ وخامسةٌ نظّمها المركزُ الدوليُّ للدراسات المستقبلية والاستراتيجية بعنوان «رؤية الشباب للقضايا الوطنية»... أقول تشير كلُّ هذه الدراسات إلى الأمور التالية:[١]

ـ ٨٨ ٪ من أفراد العيِّنة لا ينتمون إلى أيّ حزب سياسي.

ـ ٨٧ ٪ منهم لا يهتمّون بالأحداث السياسية الجارية.

ـ ٥٧٪ منهم لا يَحْرصون على متابعة البرامج السياسية أو جلسات مجلس الشعب أو الشورى.

ـ أكثر من ٩٢٪ منهم يَخْشون العملَ بالسياسة (بسبب قبضة الأمن الباطشة والخوف المترسِّب في الأعماق من النتائج السلبية الخطيرة المترتِّبة على هذا العمل).[٢]

---

١ ـ أنظرْ عرضًا لجانب من هذه الدراسات في سامي عبد الخالق، «شباب مصر يقاطع السياسة،» جريدة **العربي**، القاهرة، ٢٠٠٥/٨/١٤.

٢ ـ يصف الدكتور الشافعي بشير، أستاذُ القانون بحقوق المنصورة، هذا الوضعَ على النحو التالي: «شهدت الجامعاتُ المصرية مساحةً من الحرية بعد حرب أكتوبر (تشرين الأول) ١٩٧٣، ومارستْ نوادي أعضاء هيئة التدريس حريةَ الرأي والتعبير كما مارسها الطلابُ في ظلّ لائحة ١٩٧٦. ثم ضاع كلُّ شيء، بدءًا بإلغاء انتخابات عمداء الكليات، وحلِّ مجالسِ إدارات النوادي [نوادي أعضاء هيئات التدريس]، وتغوُّلِ السلطة البوليسية داخلَ الجامعة من خلال الحرس [الجامعي] وعناصرِ الأمن وعملائهم. وأصبح الجو في الجامعات خانقًا.»

تتركّز السلطة في مصر في أيدي ٦٪ من مواطنيها، جميعُهم فوق الستّين!

ـ لا يشعر أغلبيةُ الشباب أنّهم جزءٌ من المجتمع الذي يعيشون فيه، ما دامت الحكومةُ والأحزاب لا تتيح لهم فرصةَ المشاركة. وسادت «ظاهرةُ العواجيز» في كلّ مؤسسات الدولة، أيْ سيطرت الأجيالُ الضاربةُ في القِدَم على كلّ مناحي الحياة وكذلك الأمر في المؤسسات الإدارية والتشريعية، وفي مجلس الشعب والشورى، وأيضًا في الأحزاب السياسية، إذ تتركز السلطةُ في مصر في أيدي ٦ ٪ من مواطنيها، جميعُهم فوق الستين!

ـ أغلبُهم يَنْظرون إلى هيئات العمل السياسي القائمة باعتبارها «مجردَ ديكور وواجهةٍ تجميليةٍ هشّةٍ للنظام، وليس لها وزنٌ ملموسٌ لدى رجل الشارع الذي لم يَسْمع بها أصلاً!»

ـ يَنْظر غالبيةُ الشباب إلى العمل السياسي على أنّه «محفوفٌ بالمخاطر وغيرُ مأمون العواقب.» علاوة على عدم ثقتهم بجدوى العملية الانتخابية ونزاهتِها، وشعورهم بالسخط على مجمل الأوضاع السياسية، الأمرُ الذي يَدْفعهم إلى الإحجام عن المشاركة السياسية الحقيقية، «وإلى قَصْرِ اهتمامهم على جوانب حياتهم الخاصة...» في ظلّ ظروف اقتصادية متدهورة، وفرص عملٍ نادرة، ومرتّباتٍ محدودةٍ لا تفي بالحدّ الأدنى من متطلّبات الحياة.[1]

ـ نحو ثلثَيْ أفراد العيّنة لا يَمْلكون بطاقاتٍ انتخابيةً، ولا يهتمون بالحصول عليها.

ـ تدنّي نسبة مَنْ يمتلكون المعرفةَ السياسيةَ المباشرة في حدِّها الأدنى، وانخفاضُ مستوى الوعي السياسي بصورة كبيرة.

ميلاد جديد للحركة الشبابية في مصر

على الرغم من هذه الصورة الكابية، فقد شهدت الشهورُ الأخيرة من العام ٢٠٠٤، وطوال العام ٢٠٠٥، وما انقضى من شهور العام الحالي ٢٠٠٦، حالةً من الحراك السياسي غيرَ مسبوقةٍ، انتشرتْ موجاتُها في كافة أنحاء البلاد، وبالذات في قطاعات النخبة السياسية/الثقافية، التي بدا وكأنّها تستيقظ من سُبات طويل.

العلامة الفارقة للحظةِ النهوض هذه ارتبطتْ بميلاد «الحركة المصرية من أجل التغيير،» التي صارت تُعرف باسم «كفاية،» يوم ٢٠٠٤/٩/٢٢، وبداياتِ نزولها إلى الشارع في مفتتح عدد كبير من التظاهرات والأنشطة الجماهيرية. وكان أول هذه الأنشطة يوم ٢٠٠٤/٢/١٢ (في ذكرى اليوم العالمي لحقوق الإنسان) أما آخرُها فكان في ٢٠٠٥/٥/٢٥ في ذكرى يوم الاستفتاء الدامي على تعديل المادة ٧٦ من الدستور (باختيار رئيس الدولة بالانتخاب بدلاً من الاستفتاء)، حيث قام «البلطجيّة» والمجرمون بسَحْل العشرات من نشطاء حركة «كفاية،» وانتهاكِ أعراض العديد من فتياتها ومن الصحفيات في الشارع وعلى رؤوس الأشهاد!

وترتّب على هذا الظهور الكبير لحركة «كفاية» مجموعةٌ من التداعيات، لعلّ أبرزَها:

أولاً: كسرُ حاجز الخوف من بطش الدولة وسطوةِ أجهزةِ الأمن، وتحطيمُ ثقافة الترويع التي سادت طوال العقود الماضية.

ثانيًا: انتزاعُ حقّ التظاهر السلمي من الشارع المصري (دون انتظار الحصول عليه من أجهزة الأمن)، واكتسابُ «شرعيةٍ جديدةٍ» هي الشرعية المستمدّة من الالتفاف الجماهيري والرضا الشعبي بديلاً من شرعية الأجهزة الرسمية.

ثالثًا: رفعُ مستوى (وحدّة) نقد السلطة، ونقد فسادها، ورموزها، بدءًا من رئيس الدولة وإنزاله من عليائه التقليدية «المقدَّسة» إلى مستوى المواطن العادي الذي يؤاخَذُ على أخطائه، ويُحاسَبُ على ممارساته. وهذا ما يَحْصل للمرة الأولى في تاريخ مصر والمنطقة.

رابعًا التشديد على ازدياد وتيرة «الطلب على الديموقراطية» في مصر. والأمر المستحدث هنا هو التأكيد أيضًا على وجود

١ ـ وَرَدَ في «شباب مصر يقاطع السياسة،» مصدر سبق ذكره.

الشباب والسياسة في مصر المعاصرة

قطاعاتٍ شعبيةٍ مستعدةٍ لدفع الثمن المقابل لاكتساب تلك الديموقراطية، ومستعدةٍ للصمود في «صراع الإرادات» الذي مارسته الدولةُ باستخدام «العنف المفرط» والبلطجة وسياساتِ «الصدمة والترويع» في مواجهة متظاهري حركة «كفاية» وغيرِها من القوى والحركات السياسية الجديدة.

خامسًا: دفعُ قطاعات جديدة من شرائح النخبة السياسية والمثقفين والمهنيين، وشرائح الطبقة الوسطى الهامة، وبعضِ الشرائح الشعبية، للنزول إلى الشارع والانضمام إلى صفوف المطالبين بالتغيير الديموقراطي ـ وعلى رأسهم «القَضاةُ» الذين يخوضون نضالاً بطولياً من أجل نيل استقلالهم عن هيمنة السلطة التنفيذية، ولإقرار حقِّهم في المراقبة النزيهة للانتخابات دون فرضٍ أو وصاية.

وكان من الطبيعي أن يُحْدث هذا الحراكُ أثرَه المباشرَ في أوساط الشباب والطلاب، باعتبارهم أكثرَ الفئات العمرية حساسيةً لما يَحْدث. وتبلورت التفاعلاتُ في أربعة محاور رئيسية، هي على التتابع:

أولاً: ميلاد حركة «شباب من أجل التغيير»: هذه الحركة هي القوة الشبابية الضاربة لحركة «كفاية،» والجسرُ الموصلُ بينها وبين الجماهير الشعبية في شتّى أنحاء البلاد، إذ تنتشر تجمُّعاتُها في أكثر من خمس وعشرين محافظة من محافظات مصر. وقد أسهمتْ حركةُ «الشباب» خلال العامَيْن الماضيَيْن في تحريك المياه الآسنة في المجتمع، وفي الوصول بالشعارات السياسية والمظاهرات إلى مناطق شعبية لم يسبقْ أن وطئَتْها من قبل.

ففضلاً عن المساهمة النشطة والدؤوبة في مظاهرات الحركة الأم «كفاية» وأنشطتها واعتصاماتها، شارك «شباب من أجل التغيير» على نطاقٍ واسعٍ في المظاهرات التي انطلقتْ في مصر الشعبية: السيدة زينب ـ الزيتون ـ إمبابة ـ المطرية ـ شبرا، ألخ. وهزّتْ شعاراتُهم وهتافاتُهم الحواريَّ والأزقّةَ والميادينَ، حاملةً لبسطاء الوطن فرحةَ اكتشافِ شبابٍ من نوعٍ جديدٍ، قادرٍ على الفعل والأمل، يتحدّى الظلمَ وبطشَ السجّان.

ومن الوسائل الجديدة التي ابتكرها «شباب من أجل التغيير» فكرةَ المَعارض المتحرّكة في شوارع مصر وحواريها وأحيائها، كالمعادي وروض الفرج وغيرهما. وهي فكرة مبتكرة فعلاً، نُفّذتْ لأول مرة، وبجسارة، لكي تصل إلى المواطنين في أماكنهم، وتبسِّط القضايا السياسية للفئات العازفة عن المشاركةِ والتفاعلِ في قضايا الوطن. وتلجأ حركةُ «شباب من أجل التغيير» إلى مخاطبة الأجيال الجديدة بأساليب مناسبة، مثلما تبدّى في إصدارها ألبومًا غنائيّاً وطنيّاً جديدًا، طَبَعَتْه على أقراص مدمجة (C.D.) تتضمّن عدةَ أناشيد وأغانٍ ثورية، تُغنِّي للوطن والشعب ولحركة «كفاية» وللحرية... ولانتفاضة شعب فلسطين والعراق.

ثانيًا: نشوء حركة «طلاب من أجل التغيير»: نشأتْ هذه الحركة في شهر سبتمبر (أيلول) ٢٠٠٥، أيْ بعد عام من إعلانِ حركة «كفاية،» كجناح طلابيّ لها يَنْشط في أوساط الجامعة، ويَطْرح برنامجًا للنضال الطلاّبي الديموقراطي، وينسّق في الوقت نفسه مع المطالب الديموقراطية العامة للمجتمع. وأشار «طلاّبٌ من أجل التغيير» في بيانهم التأسيسي إلى محاور حركتهم، وهي على النحو التالي: ١ ـ رفضُ التمديدِ والتوريثِ، والعملُ على مبدإ التداول السلمي للسلطة. ٢ ـ رفضُ كلّ أشكال التدخُّل الأمني في الأنشطة الطلابية. ٣ ـ إلغاءُ قانون الطوارئ، وإطلاقُ الحريات العامة ـ وعلى رأسها حقُّ التظاهر السلمي، وحريةُ تأسيس الأحزاب والجمعيات، والإفراجُ عن كافة المعتقلين السياسيين. ٤ ـ الإشرافُ القضائي الكامل على الانتخابات البرلمانية والرئاسية. ٥ ـ رفضُ اتفاقية كامب ديڤيد، ورفضُ كلّ أشكال التطبيع مع العدو الصهيوني. ٦ ـ عدمُ الانصياع لأيّ تدخلٍ خارجيٍّ في الشؤون المصرية. ٧ ـ التضامنُ مع مطالب حركة أساتذة الجامعات من أجل استقلال الجامعات وحريتها. ٨ ـ استعادةُ دور الجامعات والمدارس المصرية كمنابر للوعي والبحث العلمي والتنوير في المجتمع. ٩ ـ النضالُ من أجل تثبيت مجّانية التعليم في كافة المراحل كحقّ من حقوق الإنسان. ١٠ ـ المشاركةُ في العملية التعليمية، وتطويرُها، من خلال حوار ديموقراطي في صفوف الطلاب.

حركة «كفاية» كسرتْ حاجزَ الخوف، وانتزعتْ حقّ التظاهر السلمي من الشارع المصري لا من أجهزة الأمن.

هذا وقد شارك «شباب من أجل التغيير» و«طلاّب من أجل التغيير» بقوة في المظاهرات والاعتصامات الدامية التى عمّت القاهرةَ في أيام ٢٦ و٢٧ إبريل (نيسان)، و١١ و١٨ مايو (أيار) الماضيَيْن، نصرةً لقضاة مصر الشرفاء في معركة الاستقلال والديموقراطية. وقد تمّ سحلُ العشرات منهم في شوارع القاهرة، بعد الاعتداء العنيف عليهم، واعتقال نحو مائة عضو منهم لا زالوا حتى الآن خلف زنازين النظام المصري.

كما تَنْشط، من خلال «شباب من أجل التغيير» و«طلاّب من أجل التغيير،» جماعاتٌ شبابيةٌ وطلابيةٌ تنتمي إلى حزبَي «الكرامة» و«الوسط» (تحت التأسيس)، وجماعة «الاشتراكيين الثوريين» و«حزب العمل» (المجمّد)، وغيرها من القوى والتجمُّعات السياسية الجديدة في مصر.

ثالثًا: شباب حزب الغد: يُعَدّ «حزبُ الغد» أحدَ أهمّ الأحزاب الحَديثة النشأة في مصر. وتعود هذه الأهمية إلى شخصيةِ مؤسِّسه وزعيمِه الدكتور أيمن نُور، الذي خاض معركةَ الرئاسة في مواجهة رئيس الجمهورية حسني مبارك، وحَلّ في الموقع الثاني بعده، مقدِّمًا أداءً لافتًا للنظر، كان أحدَ أسباب الهجمة الشرسة للسلطة عليه وعلى الحزب، إذ تمّ سجنُه بتهمةٍ ملفّقة. ولعبت السلطةُ دورًا كبيرًا في محاولة تدمير الحزب من الداخل، لمصادرةِ أيّة إمكانيةٍ لمنافسة ابنِ الرئيس، جمال مبارك، في عملية توريث السلطة القادمة.

ورغم المصير المؤسف لأيمن نور، فقد أبلى شبابُ «حزب الغد» بلاءً حسنًا في معركة الدفاع عن الحزب، وعن زعيمه، وفي معركة الحريات بشكل عامّ. وشارك عددٌ ملحوظٌ منهم في معارك الشوارع، جنبًا إلى جنب مع شباب حركة «كفاية» وغيرها من الحركات والقوى السياسية والديموقراطية في المجتمع، واعتُقِلَ بعضهم في التحركات التي واكبت «انتفاضةَ القضاة» الأخيرة.

رابعًا: دور طلاب الإخوان المسلمين: لا يُمْكن الحديثُ عن الشباب والسياسة في مصر الراهنة من دون الحديث عن طلاب جماعة الإخوان المسلمين، الذين نشطوا بصورة كبيرة طوال السنوات الأخيرة في الكثير من الجامعات والمعاهد العليا والأزهرية. فقد نَظّموا عددًا من المظاهرات داخل الحرم الجامعي في مناسباتٍ إسلامية، أو لدعم مطالب الإخوان المسلمين (الإصلاحية). وبرزوا في هيئةٍ تنظيميةٍ عالية، وإمكانياتٍ ماديةٍ كبيرة، ساهمتْ في تطوير عملهم وجذبِ قطاعاتٍ طلابية واسعة إليها.

وحسب إعلانات طلاّب «الإخوان المسلمين،» فإنّ تحرُّكاتهم تستهدف: «١ ـ نشر القيم والمبادئ الإسلامية والحضارية السلمية، وتربيةَ الشباب المصري عليها. ٢ ـ تبنّي القضايا الطلاّبية، مع تشجيع عموم الطلاب على السعي إلى نيل حقوقهم. ٣ ـ توعيةَ جماهير الطلاب بقضايا الأمّة وأبعادِ المخططات الأميركية والصهيونية ومستهدفاتها في المنطقة العربية والإسلامية وفي العالم.»

خاتمة

من الملاحظ أنّ كلّ هذه الجماعات الشبابية الجديدة، التى أَمدّتِ الحياةَ السياسيةَ المصرية بزخم جديد يُخْرجها من حالة الموات السياسي السابقة إلى حالة جديدة من الحيوية والنشاط، لا تضمّ ـ إلاّ في القليل النادر ـ شبابًا أو طلابًا منضمين إلى أيٍّ من الأحزاب القديمة التي نشأتْ في إطار «التعددية المضبوطة» التى هَنْدَسَها النظامُ الساداتيُّ ضمن منظومةٍ محكمةٍ من الضوابط والقيود أدّتْ في نهاية المطاف إلى تكريس عجزها وجمودها.

والملاحظة الثانية التي ينبغي إدراجُها في هذا السياق تخصّ وجودَ عدد واضح من **فتيات** الجيل الجديد في التجمُّعات الشبابية والطلابية المستحدثة. وهذا أمرٌ شديد الأهمية، بالنظر إلى الحملة الهائلة التى تتعرّض لها المرأةُ في مصر، بهدف مصادرة ما حقّقتْه من مكتسبات حضارية على امتداد القرن الماضي، وإعادتِها إلى المنزل، ضمن منظومةٍ رجعيةٍ تَسْعى إلى الهيمنة على المجتمع وإعادةِ تشكيل ملامحه بصورة تتواءم مع إيديولوجيّتها المتخلفة.

أحمد بهاء الدين شعبان

عضو مؤسِّس في «الحركة المصرية من أجل التغيير ـ كفاية»

التيّار الإسلامي في مصر والحركة الطلاّبية

عبد الرحيم علي

بدايات الإسلام السياسي

لا يُمْكننا في دراسة قصيرة أن نَرْصدَ أو نحلِّلَ مجملَ مشاركة الشباب المصري في حركة التيار الإسلامي المصري منذ بداية الأربعينيات من القرن الماضي، عندما أنشأ حسن البنّا (مؤسِّسُ جماعة الإخوان المسلمين) الأُسَرَ الطلاّبيةَ داخل الجامعة. ولكنّنا سنتعرّض إلى البدايات الحديثة لتوغُّلِ هذا التيّار بشكل غَيَّرَ مجرى تاريخ الحركة الطلابية في فترةٍ من أشدّ فترات توهُّجها ـ وأعني أواخرَ الستينيات وبدايةَ السبعينيات ـ لنبيِّن أنّ اندفاع الشباب إلى التيار الإسلامي لم يتمّ بصورة طبيعية، بل تمّ صنعُه إلى حدّ كبير.

بدايةً لا يُمْكن الفصلُ بين هذه القضية وبين المناخ العامّ الذي سبق تلك السنوات: فقد أحدثتْ هزيمةُ ٦٧ شروخًا نفسيةً، خاصةً لدى جيل الشباب الذي أخذ يَشْعر بأنّ البعدَ عن الله وانطفاءَ جذوة الإيمان كانا سببًا رئيسيّاً للهزيمة؛ حتى إنّ مجموعةً من الشباب ممن كانوا يساريين أو ماركسيين أو ناصريين شرعوا هم أنفسُهم في التحوُّل إلى ساحة الأفكار الدينية. وفي هذا التوقيت بدأ تشكيلُ أُولى خلايا «تنظيم الفنية العسكرية» عامَ ١٩٦٧ ـ وهذا عكسُ ما عُرِفَ عن هذا التنظيم من أنّ تشكيلَه بدأ عامَ ٧٣. يقول حسن الهلاوي، أحدُ أعضائه، في هذا الصدد: «كنتُ وقتَها في السابعة عشرة طالبًا في مدرسة السعيدية الثانوية. وكان يزاملني فيها كارم الأناضولي وسعد دربالة. وكنّا ندعو الناسَ للتمسك بالدِّين بصفة عامة، وللجهاد ضد الاحتلال الإسرائيلي وإقامةِ الدولة الإسلامية بعد طرد اليهود من فلسطين »

الكعكة الحجرية

وتجيء السبعينياتُ ويَضْرب الساداتُ ضربتَه لمعارضيه داخل السلطة ـ وهو ما سُمِّي بقضية «مراكز القوى.» وتثور ثائرةُ الطلاّب اليساريين والناصريين داخل الجامعات لإحساسهم بأنّ السادات يُجَهِّز الأرضيةَ للانقلاب على كلّ منجزات عبد الناصر. ويَرْفع الطلاّبُ شعارَ «إنهاء حالة اللاحرب واللاسِلْم،» ويتوحَّدون خلفَه. ثم يأتي اعتصامُ ميدان التحرير الذي شاركتْ فيه مجموعةٌ كبيرةٌ من الطلاّب الشيوعيين والناصريين واليساريين، إضافةً إلى مجموعةٍ أخرى من الشعراء والكتّاب والمثقفين. واستمرّ الاعتصامُ ٢٤ ساعة تقريبًا، احتلّت فيه المجاميعُ الميدانَ بصورةٍ أَوْحت إلى وكالات الأنباء العالمية بأنّ نظام حكم السادات في خطر؛ الأمرُ الذي دَفَعَ بأجهزة الأمن إلى اقتحامِ الميدان وتفريقِ المعتصمين وإنهاءِ الأزمة.

منذ ذلك اليوم شَعَرَ السادات بأنّ المصدر الرئيسي للخطر على نظام حكمه هو اليساريون والشيوعيون والناصريون ـ خاصةً الطلاّبُ منهم لأنّهم يسيطرون على الجامعات عن طريق الاتحادات الطلاّبية. ومن هنا فكّر في إنشاء تيّار ديني وسط طلاّب الجامعات تكون مهمَّتَه ضربُ التيار اليساري. وعلى الرغم من أهمية دور السادات في تشكيل هذا التيّار، إلاّ أنّ ظروفًا وأسبابًا كثيرةً ساعدت على نموّه ووصوله إلى الحجم والتأثير اللذيْن وصل إليهما في نهاية السبعينيات. ولعلّ أهمّ تلك الظروف أو الأسباب تَكْمن في الآتي:

أولاً: الطفولةُ اليساريةُ التي كانت تميِّز بعضَ قيادات العمل الطلاّبي في ذلك الحين، بدايات السبعينيات.

ثانيًا: رفعُ شعار «إنهاء حالة اللاحرب واللاسلم» من قِبل الحركة الطلابية اليسارية من دون أية شعارات تتماشى والمطالبَ الاجتماعيةَ والسياسيةَ للجماهير. حتى إذا أَقْدَمَ الساداتُ على حرب أكتوبر، سَحَبَ البساطَ من تحت أقدام الطلاب اليساريين.

ثالثًا. ظهورُ أكثر من تنظيم يساري سرّي في تلك الفترة، وتبادُلُ الاتهامات التي تبدأ بـ «عدم وجود رؤية ثاقبة وعلمية للواقع» وانتهاءً بـ «العمالة والمباحثية.» وكلّ ذلك أَضْعَفَ كثيرًا أداءَ الحركة الطلابية اليسارية آنذاك

رابعًا: «الترفُّعُ» عن طرح المطالب البسيطة للطلاّب ضمن برنامج الحركة الطلابية اليسارية. وهذا ما نجحت الجماعاتُ المسمّاة بـ «الإسلامية» في تحقيقه والتماشي معه: كطبع المذكّرات الدراسية، وتوفيرِ وسائل المواصلات والملابس، والاهتمامِ بالوجبات في

السادات قال: «العيال الناصريين والشيوعيين حيتعبوني. أنا عايز نربّي شباب مسلم يصبحوا ركيزتنا في الجامعة!»

مطاعم الجامعة، ومساعدةِ الطلاّب الفقراء.. إلخ. والحقّ أنّ هذه الاحتياجات البسيطة هي التي رَبَطت الطلابَ بقادة تلك الجماعات.

ونأتي إلى دور السادات في إنشاء الجماعات الدينية، وهو ما يُوضحه د. محمود جامع لمجلة **المجلّة** اللندنية. فقد دعاه السادات إلى لقاءٍ منفردٍ في منزله عقبَ التخلُّص من مجموعة ١٥ مايو، وأَسَرَّ له بعدم ارتياحه إلى تنامي التيّارَيْن الناصري والشيوعي في الجامعات. وقال له ما نصُّه: «يا محمود، العيال الناصريين والشيوعيين هايتْعبوني في الجامعة،» مضيفًا. «أنا عايز نربّي شباب مسلم ونصْرف عليهم ويصبحوا ركيزتنا في الجامعة.»

ويمضي د. محمود جامع قائلاً: «وبالفعل أَوْكل السادات إليّ مع محمد عثمان إسماعيل تلك المهمةَ بعد أن خصَّصَ مبالغَ معيّنةً للإنفاق عليها، على أن أتولّى مهمةَ جامعات الوجه البحري، ويتولّى عثمان إسماعيل مهمةَ الوجه القبلي انطلاقًا من أسيوط التي كان محافظًا لها ومعروفًا بعلاقاته القوية والمتميّزة في أوساط شبابها.» وأَعطى السادات لمحمد عثمان إسماعيل صلاحياتٍ مطلقةً لتنفيذ هدفين: الأول: خلقُ تيارٍ إسلامي يوازي الاتجاهَ اليساري في المجتمع ككلّ. والثاني: أن يكون هذا الشبابُ أداةً لضرب الطلبة الناصريين والشيوعيين داخل الجامعات.

يقول اللواء حسن أبو باشا، وزيرُ الداخلية الأسبق، في مَحْضرِ نقاشٍ أجريناه معه: «بالفعل بدأتْ أمانةُ تنظيم الاتحاد الاشتراكي، بقيادة محمد عثمان إسماعيل، في إنشاء ودعم تلك الجماعات التي بدأ تشكيلُها في الكليّات الجامعية المختلفة باستخدام جميع الإمكانات والأساليب، حتى وصل الأمرُ إلى حدّ دفعها إلى الصدام مع العناصر الماركسية لدى أيّ مناسبة يتاح لها فيها أن تختلق مثلَ هذا الصدام.»

ويضيف حسن أبو باشا أنّ واحدًا من تلك القيادات في أمانة التنظيم اتّصل ذاتَ يوم تليفونيّاً بمدير مباحث أمن الدولة المرحوم اللواء سيِّد فهمي، وطَلَبَ منه المساعدةَ في تدبير أكبرِ عددٍ من سيّارات الإسعاف لتكون جاهزةً للتحرُّك السريع إلى جامعة القاهرة. وكانت الإخطاراتُ قد أشارت إلى أنّ ثمةَ تجمُّعاتٍ طلابيةً في هذه الجامعة في صورة مظاهرات داخل الحرم الجامعي. وعندما استفسر مديرُ الجهاز من تلك القيادة عن السبب في طلب إعداد هذا العدد الكبير من سيّارات الإسعاف، كانت الإجابةُ أنّها ستَنْقل الجرحى من الشيوعيين الذين ستسيل دماؤهم (على حد قوله) بعد أن يتصدّى لهم أعضاءُ الجماعات الإسلامية!!

تنظيمان سرّيان

وبينما كانت أمانةُ تنظيم الاتحاد الاشتراكي منشغلةً بدعم تيّار الجماعة الإسلامية داخل الجامعات؛

وفي الوقت الذي راحت فيه أولُ دفعةٍ من دفعات الجماعات الإسلامية تتلمّس طريقَها وسطَ الطلاب عن طريق المخيّم الطلاّبي الأول الذي أقيم في جامعة القاهرة، وتحمَّلتْ تكلفتَه بالكامل أمانةُ التنظيم المذكور، وحَضَرَه من قادة الجماعة كلٌّ من: عبدالمنعم أبوالفتوح وعصام العريان من القاهرة، وإبراهيم الزعفراني وخالد داود من الإسكندرية، وخيرت الشاطر من المنصورة، ومحيي الدين أحمد عيسى وأسامة حافظ وكرم زهدي من المنيا، وصلاح هاشم من سوهاج، وعلي عبدالحكيم وحسن يوسف وعبدالمتعال عبدالواحد من أسيوط ـ وكان هؤلاء هم «أول قطفة» لما سمِّي بالجماعة الإسلامية بالصعيد؛

وبينما راح عددٌ كبير من المشايخ الذين حَضَروا المخيَّم الأولَ للطلاّب يجوبون الجامعاتِ ملتحمين بطلاّب الجماعة الإسلامية التي أُعلن عنها في المخيم، وكانوا مشايخَ من جميع الاتجاهات: فمن السلفيين كان الشيخ نصر الدين الألباني، ومن الأزهر الشيخ أسامة عبدالعظيم، ومن «التبليغ» الشيخ إبراهيم عزت، ومن العلماء الشعراوي والقرضاوي والغزالي، ومن الإخوان عمر التلمساني وعبدالحميد كشك، إلى جانب بعض المستقلين كالشيخيْن المحلاوي وحافظ سلامة؛

... نقول بينما كلُّ شيء يسير في اتجاه خلقِ تيارٍ دينيٍّ طلابيٍّ مضادّ للحركة الطلابية اليسارية في الجامعات، كان هناك تنظيمان ينموان ويتشكّلان ويحدِّدان هدفًا أساسيّاً لهما هو الاستيلاءُ على السلطة. أولُ هذيْن التنظيميْن كان «جماعة

التيّار الإسلامي في مصر والحركة الطلاّبية

المسلمين» وهو ما عُرف إعلاميّاً بـ «تنظيم التكفير والهجرة.» وثانيهما «تنظيم الفنيّة العسكرية.»

على أنّ الدكتور عبد المنعم أبو الفتوح، عضوَ مكتب إرشاد جماعة الإخوان المسلمين، وواحدًا من القيادات الطلاّبية البارزة في تلك الفترة، حاول التمييزَ بين الجماعات التي صنعها السادات وتلك التي تشكّلتْ بعيدًا عنه. فقد قال في حوارٍ أجريْتُه معه: «لقد خلط البعضُ بين الجماعة الإسلامية التي نشأتْ تلقائيّاً في الجامعات بعد هزيمة يونيو ١٩٦٧، وبين جماعة أخرى أنشأها محمد عثمان إسماعيل أُطْلِقَ عليها اسمُ 'شباب الإسلام' وبدأتْ في هندسة القاهرة.» وأضاف أبو الفتوح أنّه من المثير للدهشة أنّ هذه المجموعة قد أنشأتْها الدولةُ بعد أن يئستْ من استخدامنا أو تجنيدنا، وأنّ النظام خَطَّطَ لهذه المجموعة أن تنتشر في كلّ جامعات مصر لتحلّ بديلاً عن تيار الجماعة الإسلامية المرتبط **فكريّاً** بالإخوان في ذلك الوقت (إذْ «لم نكن قد ارتبطْنا تنظيميّاً»). إلاّ أنّها لم تَمْكث أكثر من عامَيْن على الأكثر، واندثرتْ تمامًا.

الجماعة الإسلامية

زحف قطارُ «الجماعة الإسلامية» في طريقه ـ كما يَرْصد اللِّواء حسن أبو باشا في مذكّراته ـ خارج أسوار الجامعات، حيث العديدُ من المدن والقرى في محافظات مصر المختلفة. وكان في ذلك مدعَّمًا بقوة الدولة من جهة، وقوةِ الدعاة وعلماءِ الدين من كافة الاتجاهات من جهة ثانية. واقترنتْ تلك الخطوةُ بنموِّ عددٍ من الظواهر الهامة نشير إلى بعضها في ما يلي:

الظاهرة الأولى: أنّ حركة جماعة «الإخوان» الفكرية والتنظيمية بدأتْ تعود إلى الساحة مرةً ثانيةً، منذ أن رجعتْ من الخارج أعدادٌ غفيرةٌ من كوادرها ممن حقّقوا ثرواتٍ في بلدان المهجر، ليضيفوا إليها قوةً اقتصاديةً طاغية. كما أعادت الجماعة إصدارَ مجلة **الدعوة**، بعد توقُّفٍ دام عشرين عامًا، لتكون منبرًا إعلاميّاً هامّاً للدعوة إلى أفكارها، ثم لتبدأ ثانيةً في تنظيم شُعبَها على مستوى المحافظات.

الظاهرة الثانية: بدايةُ ظهورِ جماعاتٍ جديدةٍ أكثرَ تطرُّفًا تحت مسمَّيات أخرى.

الظاهرة الثالثة: تحوُّلُ الجماعات الإسلامية التي انتشرت في جميع المحافظات إلى مفرخة يتنافس على استقطابِ عناصرِها جميعُ التنظيمات الدينية على الساحة، وفي القلب منهم جماعةُ الإخوان المسلمين. وتطوّرت الأمورُ لكي تصبح تلك الجماعاتُ أداةَ هذه التنظيمات على المستوى القاعدي في الجامعات وخارجها، في القاهرة وباقي المحافظات.

الاستيلاء على اتّحادات الطلاب

عامَ ١٩٧٧ وصل الأمرُ إلى حدّ فوز كوادر «الجماعة الإسلامية» في ثماني جامعات مصرية بإجماليِّ عضويةِ الاتحادات الطلاّبية، وذلك من أصل اثنتيْ عشرة جامعةً، على ما يوضح المهندس أبو العُلا ماضي في مَحْضرِ نقاشٍ أجريْناه معه عامَ ٢٠٠٠. وأضاف ماضي أنّ الجماعة فازت في الجامعات الأربع الأخرى بنصف المقاعد ـ وهذا ما يَعْكس إلى حدٍّ كبيرٍ ميلَ الشباب واندفاعَه نحو ذلك التيار.

كانت مرحلةُ الاتحادات الطلابية أهمَّ مرحلةٍ من مراحل نموّ «الجماعة الإسلامية.» فقد حدث فيها، كما يقول ماضي، انتشارٌ واسعٌ جدّاً، وبدأت الجماعةُ تستخدم أسلوبًا جديدًا في العمل مع الطلبة: كتوزيع الحاسبات الآلية بأسعارٍ رمزيةٍ، وشراءِ وسائل المواصلات الرخيصة مثل الدرّاجات، والضغطِ على الجامعات لإحضار وسائل لنقل الطلاب من خارج الجامعة وتقديم وجبات بسعر رمزي للطلبة. ووصل الأمرُ (كما يؤكّد ماضي أيضًا) إلى حدِّ التدخُّل لإنصاف طالبٍ ظُلِمَ في نتيجةِ امتحانٍ بأن تتمّ إعادةُ التصحيح، لتصبحَ النتيجةُ لصالحه!

كلُّ هذا ساعد في التفافِ شبابِ الطلاّب حول «الجماعة الإسلامية.»

والحال أنّ هذا التنظيم قد ساعدتْه ظروفٌ كثيرةٌ في النموّ، ليست كلُّها من تدبير السادات، فقد استطاعت هذه الجماعاتُ،

عندما أَدْرك السادات الخطورةَ الحقيقيةَ للجماعات الإسلامية، كانت الأمور قد أفلتتْ من يده.

وبذكاء، أن تتوحّد في بعض القضايا القومية مع وجدان الناس في الشارع: ومن ذلك مواقفُها العنيفة ضدّ وجود شاه إيران في مصر، ورفضُها زيارةَ السادات للقدس، ووقوفُها ضدّ اتفاقية السلام مع العدو الصهيوني.

التلمساني يَخْدع السادات ويجنِّد شبابَ «الجماعة الإسلامية»

يقدِّم عبد المنعم أبو الفتوح، في مَحْضر النقاش الذي سبقت الإشارةُ إليه، شهادةً مهمةً حول بدايةِ وكيفيةِ ارتباط شباب «الجماعة الإسلامية» آنذاك بـ «الإخوان.» فهو يشير إلى أنّه لا يستطيع أن يَذْكر تاريخًا محدَّدًا باليوم والساعة لمثل هذا الارتباط التنظيمي، ولكنّه يضيف: «لقد بدأ الارتباطُ بمجموعةٍ قليلةٍ لا تزيد عن أصابع اليد الواحدة كانت تَرْبطهم علاقةُ مودّةٍ بعدد من قادة الإخوان، في مقدِّمتهم الأستاذ عمر التلمساني والدكتور أحمد الملط والأستاذ مصطفى مشهور.» ويضيف أبو الفتوح: «بدأ الأستاذ التلمساني يدعونا للقائه والحديث معه. وظلت هذه اللقاءات مستمرةً حتى أصبحنا، بشكل عمليّ، جزءًا من حركة الجماعة في نهاية عام ١٩٧٤ ومطلع عام ١٩٧٥.»

بالطبع لم تكن الحكومةُ التي أَبرمتْ صفقةً مع الجماعة حول مواجهة التيار اليساري في الجامعات تدري شيئًا عن عمليات التجنيد الشبابية التي يقوم بها قادةُ الإخوان، وفي مقدِّمتهم الرجلُ العاقل عمر التلمساني! وحول المعلومات التي تؤرِّخ لبداية الانخراط الفعلي لكوادر «الجماعة الإسلامية» داخل الأطر التنظيمية لـ «الإخوان» في أواخر عام ١٩٧٩، قال أبو الفتوح: «هذا صحيح إذا كنتَ تتحدّث عن المجاميع. ولكنّ الرؤوس، كما قلت، انضمُّوا في نهايات عام ١٩٧٤، وكنتُ واحدًا منهم ولكنّنا كَتَمْنا هذا الموضوعَ طوال سنواتٍ عدةٍ خشيةَ أن نواجَهَ بعنفٍ من قِبل النظام، الذي فَتَحَ الطريقَ بالفعل أمام قادة الإخوان للعمل، لكنّه لم يكن على استعدادٍ لأن يَكْتشف أنّ أعضاء الجماعة الإسلامية المنتشرة في جميع جامعات مصر، والتي كان السادات قد أعطاها الحريةَ الكاملةَ لتَصْنع توازنًا سياسيًا مع اليساريين داخل الجامعة، قد أصبحوا أعضاء في جماعة الإخوان التي كانت تَعتبر نفسَها بديلاً شرعيًا للسلطة!»

وحين سَأَلْنا أبو الفتوح: «متى تمّ الإعلان عن ذلك؟» أجاب. «لم يتمّ الإعلانُ وإنما تسرّبتْ هذه الأخبارُ في أوائل عام ١٩٧٩. وغضب البعضُ من إخواننا غضبًا شديدًا. ولكنّنا استطعنا إصلاحَ ذاتِ البيْن مع بعضهم، لاسيّما في القاهرة والوجه البحري. غير أنّنا لم نستطع إصلاحَه مع الآخرين في وجه قبلي إلاّ مع عدد قليل، منهم أبو العلا ماضي ومحيي الدين أحمد عيسى وآخرون. وظلت مجموعةُ كرم زهدي وناجح إبراهيم على موقفها الرافض تمامًا لفكرة دخول الإخوان باعتبار أنّ الجماعة، على حدّ تعبيرهم، تَرَكَتْ فريضةَ الجهاد وهادنت السلطة.»

تحوّلات أساسية

يأتي عامُ ١٩٧٩ ليَحْمل عدةَ تحوُّلاتٍ أساسيةٍ داخل التيار الإسلامي الشبابي في مصر.

- **أوّلُها**: قرارُ «الجماعة الإسلامية» توحيدَ صفوفها، واختيارَ أميرٍ عامٍّ لها هو حلمي الجزّار.
- **وثانيها**: بدايةُ معارضة «الجماعة» لتصرُّفات السادات؛ وخاصةً معاهدة الصلح. وقد نَتَجَ عن ذلك اعتقالُ عددٍ كبيرٍ من هذه الجماعة
- **وثالثُها**: محاولات «الإخوان» تجنيدَ أبرز أعضاء هذه «الجماعة،» في محاولة لضمّ هذا التكتُّل البشري الشبابي الضخم إلى صفوف «الإخوان.»
- **ورابعُها**: بحثُ بعض قادة «الجماعة الإسلامية» عن دورٍ خارج الجامعة، خاصةً بعد التخرُّج من الجامعة.
- **وخامسُها**: ميلادُ فكرة العنف داخل بعض أوساط هذه «الجماعة،» ولاسيَّما في المنيا وأسيوط، على يد كرم زهدي وناجح إبراهيم.

وللأمانة، فقد فَطِنَ السادات إلى كلّ هذه التحوُّلات متأخِّرًا، وحاول عن طريق توفيق عويضة أن يؤسِّس جماعةً أخرى

لضرب «الجماعة الإسلامية» داخل الجامعات، لكنّه لم يفلح.

يقول محمود جامع:

«عندما أدرك السادات الخطورةَ الحقيقيةَ لتلك الجماعات، كانت الأمورُ قد أفلتتْ من يده. فالجماعات تعدَّدتْ ولجأتْ إلى السرية. وهناك مَنْ يَعْرفون ـ وهم قليلون ـ أنّ السادات حاول في أواخر أيامه اتّباعَ التكتيك ذاته الذي اتّبعه حين أنشأ الجماعاتِ الإسلامية، فأتى بتوفيق عويضة الذي كان قد فُصِلَ بحكم قضائي من أمانة المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية ـ وقتَ أن كان الشيخُ الشعراوي وزيرًا للأوقاف ـ ليعيِّنه مستشارًا لرئيس الجمهورية للشؤون الإسلامية، وطَلَبَ منه تكوينَ جماعات لضرب الجماعة الإسلامية. وبدأتْ معسكراتُ أبي بكر الصِّدّيق الصيفية لطلاب الجامعات، والتي كان يُنْفق عليها من ميزانية خاصة تحت إشراف محمد توفيق عويضة. وأخذ الساداتُ يَحْرص على زيارة تلك المعسكرات والالتقاءِ بشبابها، كما أخذ يُغْدق عليهم. إلاّ أنّ تلك الطريقة لم تكن لها أيُّ فائدة.»

وعلى الرغم من أهمية التحوُّلات الخمسة التي حدثتْ عام ١٩٧٩ فإنّ أبرزها كان محاولة «الإخوان» الناجحة ضمّ كوادر «الجماعة» الإسلامية البارزين إليها. وقد بدأ الإخوانُ بذكاء في استقطاب مجموعة من القيادات التي تَحْظى بحبٍّ وتقديرِ مجموعاتٍ كبيرةٍ من أعضاء الجماعة الإسلامية فكان أن انضمّ إلى جماعة الإخوان ـ كما يروي أبو العُلا ماضي ـ بين ١٢ و١٥ قياديًا من الجماعة على رأسهم: عبد المنعم أبو الفتوح، وعصام العريان، وخيرت الشاطر، وأنور شحاتة، ومحيي الدين أحمد عيسي، وأبو العلا ماضي ولقد ساعد دخولُ هذه العناصر في انضمام أعدادٍ كبيرةٍ أخرى من أعضاء الجماعة الإسلامية إلى «الإخوان.» وهذا ما أثار حفيظةَ بعض كوادر «الجماعة» وعلى رأسهم كرم زهدي، وفؤاد الدواليبي، وأسامة حافظ، وعاصم عبد الماجد، وناجح إبراهيم، وعلي الديناري، وآخرون ساءتهم خيانةُ رفاقهم لهم ودخولُهم في التنظيم الذي طالما رفضوا الانضمامَ إليه تحت دعوى أنّه تنظيمٌ «مسالِمٌ ومماليءٌ للسلطة» وفَقَدَ شرعيّته عندما تخلّى عن «جهازه الخاص» وقَبِلَ العملَ الشرعيَّ ـ من وجهة نظرهم.

هنا يجب التشديد، من منطلق الإنصاف، على أنّ خلافات كبرى وقعتْ بين الفريق الذي انضمّ إلى الإخوان، والفريق الذي ظلّ يَحْمل اسمَ «الجماعة الإسلامية..» مضافًا إليها تعبير «نحو فَهْمٍ سلفي» لتمييزها عن الجماعة الإسلامية التي تَحْمل شعارَ الإخوان (المُصْحف وسطَ السيفيْن المتقاطعيْن). ووصل الخلافُ حدَّ اقتسام المساجد في المحافظات، خاصةً في المنيا وأسيوط، والدخول في معارك دموية بالجنازير والأسلحة البيضاء حول مَنْ يؤُمُّ صلاةَ العيد التي كانت تتمّ عادةً في الخلاء... حتى تم الاتفاُق على أن يؤمَّها أحدُ مشايخ الجمعية الشرعية حسمًا للخلاف.

وأدّى نجاحُ تجربة الجماعات الدينية في الجامعات إلى طرح أعضائها وقياديّيها السؤالَ الأهمّ، والذي بدا منطقيًا آنذاك: ماذا بعد التخرُّج من الجامعات؟!

الاجتهاد في الإجابة عن السؤال السابق أسفر عن انتشارٍ واسع لجماعة الإخوان المسلمين في مصر، بَدْءًا بالنقابات ولن ينتهيَ بالبرلمان إلاّ أنّ بداياته الحقيقية كان وسط الحركة الطلاّبية المصرية التي تُعَدُّ أفضلَ تمثيلٍ لحركة الشباب المصري في علاقته بالسياسة.

لقد أردتُ ممّا سبق أن أبيِّن الظروفَ التي تمّ خلالَها اصطناعُ وتقويةُ التيّار الإسلامي وسطَ الشباب المصري، إلى جانب الأسباب الأخرى الموضوعية لانتشار ذلك التيار، بحيث أصبح مركزَ جذبٍ رئيسيٍّ لحركة الشباب المصري في علاقته بالسياسة. حتى إنّ أحدًا لا يستطيع الآنَ إنكارَ قوة اندفاع الشباب إلى تلك البؤرة، وكثافةَ تمثيلهم هناك مقارنةً بوجودهم في أيٍّ من التيارات والحركات الأخرى.

عبد الرحيم علي

باحث في الإسلام السياسي.

الحركة الطلاّبية في الأدب المصري

مصطفى بيّومي

لعب طلاّبُ المدارس الثانوية والجامعات دورًا بالغَ الأهمية في تشكيل التاريخ المصري الحديث والمعاصر. وإذا كان الأزهرُ بأساتذته وطلاّبه قد تصدّى لقيادة العمل الوطني في القرون السابقة، فإنّ الكفّة قد مالت إلى طلاّب التعليم المدني في القرن العشرين.

ثمة محطّاتٌ رئيسةٌ في تاريخ الحركة الطلاّبية المصرية، لعلّ أوّلَها وأهمَّها يتجسّد في مشاركة الطلاّب الفعّالة في أحداث ثورة ١٩١٩، ثم مقاومتهم لطغيان أحزاب الأقلية غير الشعبية، وصولاً إلى انتفاضة سنة ١٩٣٥ ـ وفيها قاد طلابُ مصر حركةً شعبيةً عارمةً أدّت إلى قيام الائتلاف الوطني وتوقيع معاهدة سنة ١٩٣٦.

تغيّرت الأفكارُ والتوجُّهاتُ بنشوب الحرب العالمية الثانية وبعد نهايتها كانت «اللجنةُ الوطنيةُ للطلبة والعمّال» بمثابة البداية لتحوّلٍ شاملٍ في منهج قيادة الحركة الوطنية ذاتِ الأبعاد والأهداف الاجتماعية، التي لا تَقْنع بمطلبَي الدستور والجلاء. وما الاحتفالُ الدولي بيوم الطلبة العالمي، في الحادي والعشرين من فبراير من كلّ عام، إلاّ تتويجٌ لنضال الطلبة المصريين، الذي استمرّ متوهِّجًا حتى قيام ثورة يوليو ١٩٥٢، ثم خبا وتراجَعَ في ظلّ الحكم الشمولي، وبُعِثَ من جديد في أعقاب هزيمة ١٩٦٧ التي كَشَفتْ عن الثمن الفادح لغياب الديموقراطية واستبعاد حيوية الشباب وأفكارهم الأكثر صدقًا وتعبيرًا عن الواقع.

كانت مظاهراتُ الطلبة والعمّال احتجاجًا على مأساة الهزيمة. وعَبْرَ ما يزيد عن عشر سنوات أَحْدَثَ الطلابُ اليساريون حراكًا سياسيّاً لا يُمْكن إنكارُه، وفَرَضوا على الشارع المصري شعاراتٍ ورؤًى مغايرةً للسائد والمألوف. ثم تحوّلت الدفّةُ مع نهاية السبعينيات، وسيطر الاتجاهُ الإسلامي الذي يتّسم بنزعةٍ مختلفةٍ في التفاعل مع الأحداث والقضايا الوطنية.

لم يقصّر الأدبُ المصريُّ، الروائيُّ والقصصيُّ، في صياغةِ شهادةٍ فنيةٍ عن الإنجاز الوطني للحركة الطلاّبية عبر مختلف مراحلها. واللافت للنظر أنّ الشعر العامي، دون الفصيح، كان الأكثرَ تعبيرًا عن قضايا الطلاّب واجتهاداتهم، وهو ما نجده عند بيرم التونسي وفؤاد حدّاد وصلاح جاهين وأحمد فؤاد نجم وزين العابدين فؤاد ومحمد سيف وغيرهم. والاستثناء الوحيد الفصيح يمثّله الشاعرُ الكبير أمل دنقل، وبخاصةٍ في قصيدته الذّائعة الصيت: «أغنيةُ الكعكة الحجرية »

ثورة ١٩١٩

ليس مثل نجيب محفوظ في تعبيره عن أهمية الدور الذي قام به طلابُ الجامعة المصرية إبّان ثورة ١٩١٩، تمهيدًا لها ومشاركةً في أحداثها وحفاظًا على مبادئها وقيمها

فبعد ثلاثة أيام من نهاية الحرب العالمية الأولى وإعلان الهدنة، يروي فهمي أحمد عبد الجواد، في رواية **بين القصرين** لمحفوظ، أنّه قد «ذاع بين الطلبة نبأٌ عجيبٌ كان حديثَنا اليومَ كلَّه، وهو أنّ وفدًا مصريّاً، مكوّنًا من سعد زغلول باشا وعبد العزيز فهمي بك وعلي شعراوي باشا، توجَّهَ أمس إلى دار الحماية وقابَلَ نائبَ الملك للمطالبة برفع الحماية وإعلان الاستقلال » (ص ٣٠٥)

كان نفيُ سعد زغلول ورفاقِه إيذانًا باشتعال الغضب، الذي وَصَلَ إلى ذروته بين صفوف الطلاّب؛ ذلك أنّهم راهنوا على زعامة سعد لتحقيق تطلّعاتهم الوطنية وكان المنشغلون بالهمّ السياسي منهم ينتمون إلى مبادئ الحزب الوطني، ويدينون بالولاء العاطفي لمصطفى كامل ومحمد فريد. لكنّ زعامة سعد الوليدة راحت تزيح ما قبلها· وفي هذا يقدِّم نجيب محفوظ مشهدًا بالغَ العمق والصدق في رصده للمناخ الجديد وما يُنْبئ به من متغيِّرات ففي الطريق إلى الجامعة، راكبًا ترامَ الجيزة، يجد فهمي نفسَه بين شرذمة من الطلاب

«يتناقشون ملوِّحين بقبضاتهم؛ [فقد] نُفي سعد وهو يعبِّر عن قلوبنا. فإمّا أن يعودَ سعد ليواصل جهادَه، وإمّا أن نُنفى معه. ولما أقبلوا على فناء المدرسة وجدوه مكتظّاً صاخبًا مرعِدًا،

فسبقتهم قلوبُهم إليه. ثم هرولوا إلى زملائهم تحدِّثهم نفوسُهم بحدثٍ وشيك. وما لبث أن انبرى أحدُهم مناديًا بالإضراب وجاءهم ناظرُهم المستر ملتون في لطفٍ غير معهود، ونَصَحهم بالدخول إلى الفصول فكان الجواب أنْ صَعَدَ شابٌّ منهم إلى أعلى السلم المُفْضي إلى حجرة السكرتير، وراح يَخْطب بحماسة فائقة. فلم يَسَع الناظرَ إلا الانسحاب. ثم ما يَدْرون إلاّ والمستر ايموس، نائبُ المستشار القضائي البريطاني لوزارة الحقانية، يشقّ طريقَه بين جموعهم. فقابلوه بهتافٍ واحد: 'لتسقط الحماية. لتسقط الحماية!' فتلقّاهم الرجلُ ببرود لم يَخْرق به حدَّ اللطف، ونصحهم بالعودة إلى مدارسهم، داعيًا إيّاهم إلى تَرْك السياسة لآبائهم هنا تصدى له أحدُهم قائلاً: إنّ آباءنا قد سُجِنوا، ولن نَدْرس القانونَ في بلدٍ يُداس فيه القانون.» (ص ٣٤٠)

الفقرة السابقة من الرواية تبدو بالغةَ الدقة، عند مقارنتها بما تَذْكره كتبُ التاريخ في تجسيد المناخ الثوري الذي ساد في الأوساط الطلابية. وتزدحم الروايةُ بكثير من التفاصيل عن اللجان والخلايا الطلابية التي تشكّلتْ لممارسة مهامّ وطنية بارزة: توزيع المنشورات، وتنظيم الإضرابات، وحشد المظاهرات . لقد طغى الشعورُ الوطنيُّ حتى تغلَّبَ على الالتزام الأُسَري التقليدي، ولم يستطع فهمي أن يَخْضع لأوامر أبيه بالابتعاد عن العمل السياسي، ومثلُ هذا المؤشِّر لا يُمْكن استيعابُ أبعاده بمعزل عن إدراك السلطة الأبوية غير المحدودة للسيّد أحمد عبد الجواد. لقد انتصر الانتماءُ الوطني، وانحاز الشبابُ لنداء الوطن متخلِّين عن الرواسب الموروثة للطاعة الأبوية. وليس مصادفةً أن تنتهي الروايةُ، وكأنّها تشير إلى نهاية مرحلة كاملة، باستشهاد فهمي بعد انتصار الثورة وصدور قرار الإفراج عن سعد زغلول. لقد دفع الطلاّبُ المصريون، وغيرُهم من فئات الشعب، ثمنًا غاليًا للنصر لكنّ المسار التي اتّخذته الثورةُ المنتصرة كان مليئًا بالمنغِّصات: فقد هيمن الانقلابيون على مقدِّرات الحياة السياسية، وتعرّض الحزبُ الشعبي الذي قاد الثورةَ للمؤامرات والدسائس، واستمرّ الطلابُ في مسيرتهم الثورية لمقاومة الجلاّدين والطغاة.

طغيان إسماعيل صدقي

تنشغل روايةُ **الأرض**، للكاتب الكبير عبد الرحمن الشرقاوي، برصد حالة السخط التي عَمّت الريفَ المصري، مطلعَ الثلاثينيات من القرن العشرين، في مواجهةِ ديكتاتوريةِ إسماعيل صدقي. لكنّ الاهتمام بثورة الفلاّحين لا يَحُول دون التفات الروائي إلى ما يقوم به **الطلاّبُ** في القاهرة، من خلال عينَي الراوي، وفي عاصمة المديرية، عندما يُعتقل الفلاحون ويشاهِدون في محبسهم ما يَفْعله الطلاب، ثم يعودون إلى القرية ليقصّوا أفعالَهم الجديرةَ بالإعجاب:

«في كلّ ساعة من الليل كانت حُجراتُ سجن المركز تستقبل آخرين. كانوا خليطًا من طلاّب المدارس الثانوية، ومدرسة المعلّمين الأولية، ومدرسة الزراعة المتوسطة في عاصمة الاقليم. وكان من بينهم بعضُ الطلبة الذين يدرسون في الجامعة بالقاهرة، والذين صنعوا هناك المظاهرات طوال الشتاء.» (**الأرض**، ص ٢٦٧)

الطلاب الوطنيون يقاومون طغيانَ صدقي في القاهرة وفي المدن الصغيرة، ولا يَمْلك الفلاحُ الفصيحُ عبد الهادي إلا الذهولَ مما يسمع: «وعَجِبَ للّهجة الصافية التي يتحدّث بها هؤلاء المحبوسون. وعَجِبَ ـ أكثرَ من أيّ شيء ـ لإيمانهم الخارق بأنّهم سيطردون حزبَ الشعب، والذين وراءَ حزبِ الشعب » (ص ٢٦٨)

لكنّ نجيب محفوظ يبقى هو الأعمقَ والأشملَ في رصده وتحليله لطبيعة العلاقة الصِدامية بين الطلبة وحكومة صدقي. وتضمّ قائمةُ الضحايا في عالم نجيب محفوظ كثيرًا من الشهداء الذين سقطوا برصاص السياسي الطاغية المكروه شعبيّاً

ففي رواية **المرايا**، يتزوّج خليل زكي من ابنةِ قصّابٍ غنيّ من مدمني المخدِّرات: «وكانت الوحيدة التي بقيتْ من ذريّة الرجل،

لم يقصّر الأدبُ المصري في صياغة شهادة فنية عن الإنجاز الوطني للحركة الطلاّبية عبر مختلف مراحلها، بدءاً بثورة ١٩١٩.

بعد أن قُتل أخواها في المظاهرات التي اجتاحت البلادَ في أول عهد إسماعيل صدقي» (**المرايا**، ص ٩٦). ويتعرّض الطالب رضا حمادة، أحدُ أقرب أصدقاء الراوي في الرواية نفسها، للقتل في عهد صدقي (ص ١١٠). ويموت صديقٌ آخر، طه عنان، في مظاهرةٍ ضدّ إسماعيل صدقي «السفّاح المتعطّش للدماء.» (ص ٢٢٨)

وفي **حديث الصباح والمساء** لمحفوظ أيضًا، يُقتل الطالبُ الوطني أمير سرور عزيز في أوائل عهد إسماعيل صدقي. «ففي طوفان المظاهرات التي قامت احتجاجًا على إلغاء دستور ١٩٢٣، أَرْدَتْهُ رصاصةٌ قتيلاً في شارع محمد علي. وقد تولّى رجالُ الأمن دفنَه مع كثيرين حتى لا تهيِّئ جنازاتُهم فرصةً لقيام مظاهرات جديدة. ولم يُسمحْ بشهود دفنه إلا لأبيه وعمه وإخوته.» (**حديث الصباح والمساء**، ص ٢٨)

وفي قصة «أُسرةٌ أناخ عليها الدَّهرُ» من مجموعة **الشيطانُ يَعِظُ**، يتوجّه الراوي إلى دراسة الظروف الاجتماعية والاقتصادية لأُسْرة تطلب مساعدةَ وزارة الأوقاف. وعندما يسأل عن الأولاد يتلقّى إجابةً صادمة: «الابن الأكبر، وهو في نهاية مرحلته العليا، قُتل في مظاهرة على عهد إسماعيل صدقي.» (**الشيطان يَعِظُ**، ص ٢٧٤)

أما علي سليمان، أحدُ الوجوه التي تَجْمعها الصورةُ التذكاريةُ في قصة «صورة قديمة» من مجموعة **دنيا الله**، فقد أصيب برصاصةٍ في صدره على عهد صدقي (**دنيا الله**، ص ٢١٤) ويُقتل يسري صابر مكي في قصة «صباح الورد،» عندما يتعرّض ـ وهو طالب في كليّة الطب ـ لهجمةٍ شرسةٍ من الشرطة ضمن مظاهرة كبيرة ضدّ إسماعيل صدقي: «ونُقل إلى مستشفى قصر العيني مصابًا برصاصة في بطنه، وسرعان ما أسلم الروح.»

والحال أنّ إسماعيل صدقي ليس متفرّدًا في عدائه للشعب والحركة الطلابية الوطنية، بل هو حلقةٌ من سلسلةٍ مشؤومة من الطغاة كما يقول كمال عبد الجواد في **السكّرية** (ص ٤٥). «اليوم توفيق نسيم، وأمس إسماعيل صدقي، وأول أمس محمد محمود. تلك السلسلة المشؤومة من الطغاة التي تمتدّ إلى ما قبل التاريخ. كلّ ابن كلب غَـرَّتْه قوتُه يَزْعم لنا أنّه الوصيُّ المختار، وأنّ الشعب قاصر!»

هذه السلسلة، التي تنهال عليها الشتائمُ القاسيةُ، جاهزة دائمًا للانقلاب على الشعب، والتحالُف مع أعدائه، وتقديمِ الخدمات المطلوبة للسراي أو الإنجليز. ولذا كان على الطلاب أن يتصدّوا لها، وجاءت قمةُ نجاح النضال الطلابي في إسقاط مسلسل الفساد السياسي الذي ألغى الدستورَ وحَكَمَ بالحديدِ والنار.

انتفاضة ١٩٣٥

في **بداية ونهاية** لمحفوظ، يشارك حسنين كامل، طالبُ المرحلة الثانوية، في المظاهرات التي اندلعتْ بعد تصريحات الوزير الإنجليزي هور حول دستور ١٩٢٣، ويَهْتف مع الهاتفين: «ليسقط تصريح هور،» و«ليسقط هور ابن الثور.» (**بداية ونهاية**، ص ٣)

طلاّب المدارس الثانوية يشاركون في العمل السياسي، إذن. ومثلُ هذه المشاركة الإيجابية تتوافق مع المناخ العامّ؛ فقد كان الوفدُ حزبًا شعبيّاً يحتضن الشبابَ الوطني، وكان يغيِّر سياسته ـ كما يقول الماركسي كامل رمزي ـ إذعانًا لمشيئة التلاميذ بالمدارس الثانوية! (**المرايا**، ص ٣٤٧)

في رواية **الشوارع الخلفية** لعبد الرحمن الشرقاوي ما يَكْشف عن النضج السياسي والفكري لطلاّب المرحلة الثانوية في الثلاثينيات: فقد شاركوا في إسقاط حكومة توفيق نسيم، وتزعّموا مع زملائهم طلاّب الجامعات الدعوةَ إلى الائتلاف الوطني. وتضفي الروايةُ هالةً من القداسة على الشهيد عبد الحكم الجراحي؛ وليس أدلّ على ذلك من الانفعال الطاغي لدرّيّة، ابنةِ الضابط شكري عبد العال، وهي تقرأ رسالةَ الشهيد التي تفجِّر الدموعَ:

الحركة الطلاّبية في الأدب المصري

«خطاب مفتوح إلى رئيس وزراء إنجلترا، روح الشر: أَطلقَ عليَّ واحدٌ من بني جلدتك النارَ، وها أنذا أزحفُ نحو الموت. ولكنّي سعيدٌ جدّاً لأن أبذلَ روحي وأضحّي بدمي في سبيل مصر. الموت شيء تافه، وآلامُ الموت عذبةٌ من أجل مصرنا.. تحيا مصر.. مصرُ فوق الجميع. تحيا التضحية.. يسقط الاستعمار. تَسْقط إنجلترا... سيعاقبكم اللهُ.. تحيا التضحية!»

واختنق صوتُ دريّة وهي تقرأ، وارتفع عويلُ أختها سميرة. ولا يَمْلك قارئُ رواية الشرقاوي إلاّ أن يتوقّف أمام التجسيد الفني الأخّاذ للدور الإيجابي الذي قام به طلاّبُ مصر في المرحلتيْن الثانوية والجامعية والحقّ أنّ الجراحي لم يكن هو الشهيد الوحيد ـ فقد سقط الابنُ الذكرُ للضابط الوطني شكري عبد العال شهيدًا، كما سقط الطالب سعد داود في مواجهة مع الشرطة. وهذا ما يضفي على الرواية إطارًا شجنيّاً، تختلط فيه مشاعرُ الألم والحسرة مع أحاسيس التضحية والعطاء النبيل.

تحالف الطلبة والعمّال

في الصفحة الأولى من رواية **الباب المفتوح**، للدكتورة لطيفة الزيّات، عن أمسية ٢١ فبراير سنة ١٩٤٦ مرحلةٌ جديدةٌ في الكفاح الوطني، وتوجُّهٌ مختلفٌ للطلاب، ومشاركةٌ نسائيةٌ غيرُ معهودة. الأعلام المرفوعة مخضّبةٌ بالدماء: «أعلام من دم، دم اللي ماتوا وانجرحوا عشان مصر، ٢٣ ماتوا و١٢٢ انجرحوا.» (**الباب المفتوح**، ص ٢)

كانت لطيفة الزيّات واحدةً من قيادات الحركة الطلابية، وكذلك الأمر مع يوسف إدريس، الذي عَبَّرَ عن المرحلة نفسها في قصته القصيرة الطويلة «قصة حب،» من مجموعة **جمهورية فرحات**. فقد تحوّلَ حمزة من طالبٍ مستهترٍ إلى مناضل وطني شرس، بفضل المناخ الذي خلقتْه الحركةُ الطلابيةُ الواعية ففي السادس من مارس سنة ١٩٤٦ حصل الحدادُ الشعبي العامّ على ضحايا كوبري عباس في ٢١ فبراير، وكان السلوكُ الوطني كفيلاً بتغيير مسار حمزة من العبث واللهو إلى الوعي الذي جعل منه زعيمًا طلابيّاً مرموقًا. وفي حين كان الأستاذُ الجامعيُّ الوقور يرى أنّ العلم هو القوة، تملّك حمزة:

«ضيقٌ شديدٌ وحماسٌ. فرحت طالِع وماسِك الطباشيرة وأضفت الكلمة دي: العلم (في بلد مستقل) = قوة. وهاج المدرّج وماج وكان سيَعْقب المؤتمرَ انتخابُ مندوبين عن الكلية في اللجنة التنفيذية للجامعة كلها وانتخبتُ. وكان دَهْ أول الطريق.» (**جمهورية فرحات**، ص ١٠٣)

لطيفة الزيّات، طالبةُ الآداب، ويوسف إدريس، طالبُ الطبّ، هما من القيادات الطلابية المعاصرة لأحداث ١٩٤٦ وبهاء طاهر، الذي لم يكن قد تجاوز العاشرةَ من عمره إلا قليلاً، يعبِّر عن المرحلة نفسِها في قصة «نهاية الحفل» من مجموعة **الخطوبة**. واحد من الثوريّين القدامى يباهي بتاريخه الوطني، ويدلّل على ذلك بمشاركته في المظاهرة الطلابية التي انتهت بالمأساة الدامية: «أنا في سنة ٤٦ كنت على كوبري عباس. أين كنت أنت؟ وأنت؟» (**الخطوبة**، ص ٦٢). وفي قصة «شتاء الخوف،» من مجموعة **ذهبتُ إلى شلال**، يستدعي صلاح عمران الحدثَ الداميَ كلما شاهد كوبري عباس:

«ما من مرة يراه أو يمشي فوقه إلاّ وتطارده الفكرةُ التي كثيرًا ما عذَّبتْه. الطلاّب فوق الكوبري يهتفون للوطن، ولكنّ جسمَ الكوبري الحديدي يتحرّك ببطء ليَفْتح بئرًا عميقةً نحو الأمواج تتساقط فيها الأجسامُ لم يرَ ذلك. كان وقتَها طفلاً، ولكنّه كثيرًا ما سمعه وقرأه.» (**ذهبتُ إلى شلال**، ص ٦٩)

إنّ الكراهية بطبيعة الحال ليست موجّهةً إلى الكوبري ـ المبنى، أو الكوبري ـ الاسم، بل إلى الحادث الدموي العنيف الذي يجسِّد أسلوبًا قمعيّاً في مواجهة الحركة الطلابية. ومن أَجْدر بالمثقف المذعور الخائف من الاعتقال، قرب نهاية الخمسينيات، أن يجد في الكوبري وما يقترن به من أحداث تاريخية تأكيدًا لمخاوفه؟!

ليس مثل نجيب محفوظ في تعبيره عن أهمية دور الطلاب إبّان ثورة ١٩، وتصدّيهم لصدقي، ويقظة وعيهم بعد هزيمة ٦٧

تأميم الحركة الطلابية

إذا كان الجزء الأول من ثلاثيّة جميل عطية إبراهيم، وعنوانُها **١٩٥٢** يَكْشف عن النشاط السياسي للطلبة في بداية ثورة يوليو، امتدادًا للحركة النشيطة قبلها، فإنّ سيطرة الضبّاط قد أدّت إلى تأميم النشاط الوطني وثمة شهادةٌ بالغةُ العذوبة يقدّمها بهاء طاهر في رواية **قالت ضحى**. فالشابّ الإيجابي قبل الثورة يتحوّل إلى السلبية الكاملة، ولم تكن سلبيتُه نابعةً من فراغ: فقد كان وصديقه حاتم من العاملين في السياسة والمنشغلين بالهمّ الوطني، وبعد الثورة شاركا في مظاهرةٍ ديموقراطية تعرّضا بعدها لقمعٍ غير معهود: «أخذونا يومَها لواحدٍ من معسكرات الجيش، وبدأت العصى والأحذيةُ السوداء الغليظة تنهال على الأجساد. أخذونا واحدًا واحدًا: مَن الذي نَظَّم المظاهرة؟ أيّ حزب حَرَّضَكم على التظاهر؟ مَنْ قادتُكم؟» (**قالت ضحى**، ص ٧٤). وهنا اضطرّ الراوي إلى اعترافٍ لا مبرَّر له على زملائه، وانكسر حماسُه، وانقطعتْ صلتُه بالعمل السياسي، ففسَحَ الساحةَ للانتهازيين والوصوليين من رجال المرحلة الجديدة!

كان القمعُ قاسيًا بلا هوادة، ومناخُ الرعب هو المسيطر المهيمن. وكان البديل الذي اندفع إليه الشبابُ، جامعيّاً كان أو غيرَ جامعيّ، هو كرةَ القدم وبعضَ التقاليع التافهة التي يجسّدها عبد الرحمن الشرقاوي في رواية **الفلاّح**. ذلك أنّ الاتحاد الاشتراكي العربي، وهو التنظيم السياسي الرسمي الناصري، لا يستوعب الشبابَ، فأسفر الفراغُ السياسيُّ عن سيادة الإحساس الطاغي باللامبالاة وإيثار الابتعاد عمّا يَجْلب المشاكل وكان مثلُ هذا الخواء نتيجةً منطقيةً لانفراد سلطة يوليو باتخاذ القرار دون شريك أو مشاركة. وكان لا بدّ من هزيمةٍ قاسيةٍ في حجم ما حدث في يونيه ١٩٦٧، حتى يستعيد الطلابُ عافيتَهم من جديد.

في روايات **الكرنك**، و**الحب تحت المطر**، و**الباقي من الزمن ساعة**، يقدّم نجيب محفوظ شهادةً مهمةً عن يقظة الوعي الطلابي بعد هزيمة ١٩٦٧، وعن الثمن الفادح الذي دفعه الطلابُ في سبيل مبادئهم وخطابهم السياسي المختلف. لا تخلو رواية من هذه الروايات من ضحية: ففي **الكرنك** يموت حلمي حمادة تحت وطأة التعذيب الوحشي، ويَفْقد حامد مستقبلَه الدراسي وإحدى عينيْه في **الحبّ تحت المطر**، ويُقتل عزيز صفوت في مظاهرة طلابية ضد الرئيس السادات في **الباقي من الزمن ساعة**.

وعن المرحلة نفسها يَكْتب بهاء طاهر في **شرق النخيل**، حيث التعبيرُ الدافئ المتعاطف مع الحركة الطلابية التي اشتدّ ساعدُها، ومزجتْ في مطالبها بين الوطني والقومي والاجتماعي. وفي ظلّ مثل هذا الحراك يتخلّى السلبيون عن سلبيتهم، ويختلط الذاتيُّ والموضوعيُّ في مزيجٍ فنيٍّ فريدٍ يضفي على الرواية روحًا شعريّاً يبتعد بها عن الخَطابة والمباشرة والهتاف الفجّ.

وتستمرّ الشهاداتُ من أجيال روائية تالية، ولعلّ أنضجَها ما يقدّمه يوسف أبو ريّة في **عطش الصبّار**، ومحمود الورداني في كلّ من **نوبة رجوع**، و**الروض العاطر**، و**أوان القطاف**. أبو رية والورداني مشاركان في أحداث الحركة الطلابية الساخنة، وقادران على رصدٍ أكثرَ إحاطةً بالتفاصيل من الأجيال السابقة. لكنّ بهاء طاهر في **الحب في المنفى** و**نقطة النور** يَرْصد بدوره هزائمَ الحركة الطلابية اليسارية وبدايةَ تدهورها: فثمة الشابُّ الناصري المهاجر المهزوم الذي يقع فريسةً للضياع في الرواية الأولى؛ وثمة الطالبةُ الماركسيةُ المأزومة، المريضةُ الروح والجسد، في الرواية الثانية

كان تطاحُنُ اليساريين وتشرذُمُهم من ناحية، وتحالفُ السادات المريب مع الجماعات الدينية في صفقةٍ انتهازيةٍ قصيرةِ النظر من ناحية أخرى، مَدْخلاً إلى تراجع الحركة الطلابية الوطنية ذاتِ الأهداف التقدُّمية، وبدايةً لصعود الاتجاه الإسلامي الذي يقدّم علاء الأسواني عنه، في رواية **عمارة يعقوبيان**، رؤيةً موضوعيةً متّزنةً غيرَ مسبوقة:

فطه الشاذلي واحدٌ من أبناء الفقراء المسحوقين. وبحُكْم الانتماء الطبقي المتواضع، فَشِلَ الطالبُ المتفوق في الالتحاق بكلية

الحركة الطلاّبية في الأدب المصري

الشرطة. ولم ينجُ في كلية الاقتصاد والعلوم السياسية من الشعور المدمِّر بالغربة والضياع. وفي ظلِّ تراجع الاتجاه اليساري، القادر على استقطابِ أمثالِ طه، كان منطقيّاً أن يَسْقط «ابنُ البوّاب» في أحضان الجماعات الإسلامية التي امتلأتْ بها جامعاتُ مصر البداية في مصلَّى الكليّة، والنهاية هي الموت في عملية إرهابية انتقامية. وبين البداية والنهاية رحلةٌ طويلةٌ تمتزج فيها مشاعرُ السخط والضيق مع استثمار الأحاسيس الدينية للتعبير عن غياب الرضا والتوافق، والوصول إلى ضرورة الصدام الدموي.

نهايةُ طه كانت في خنادق التطرّف والإرهاب. لكنّ البداية الحقيقية لضياعه تتمثَّل في الخلل الذي أصاب الخريطةَ السياسيةَ والاجتماعيةَ والثقافيةَ في مصر، وفي الوهن الذي أصاب الحركةَ الطلابيةَ التي تحوّلتْ من التعدد والتنوع والآفاق الديموقراطية إلى الانغلاقِ والجمودِ والتعنت.

نبوءة

إنّها رحلةٌ طويلةٌ ممتدة للحركة الطلابية المصرية، تنوّعتْ خلالَها الأفكارُ والرؤى والشعاراتُ. والثابتُ الوحيدُ هو حرصُ الشباب المصري على المشاركة في الشأن العامّ، والتواصلُ مع هموم الوطن الذي ينتمون إليه.

قبل ما يزيد عن نصف قرن، في رواية **القاهرة الجديدة** التي صَدرتْ طبعتُها الأولى سنة ١٩٤٥، يقدِّم رائدُ الرواية العربية نجيب محفوظ نبوءةً ثاقبةً تتأكَّد صحّتُها كلّ يوم. ففي المدينة الجامعية تدور مناقشاتٌ محتدمةٌ لا تنتهي، وأطرافُ الحوار موزَّعون بين الإسلاميين واليساريين والليبراليين واللامنتمين. يقول الوصولي الانتهازي محجوب عبد الدايم قرب نهاية أحد هذه الحوارات: «نحن نشقّ على أنفسنا أكثرَ ممّا ينبغي. كأنّ هذه الحجرة مسؤولة عن رفاهية الدنيا!» ويردّ اليساري علي طه: «سوف تصغي جدرانُها إلى آمال الأجيال المتعاقبة ما دامت حجرةً للطلبة.» (**القاهرة الجديدة**، ص ٤٦)

الطلبة هم وقودُ التغيير حقّاً، وآمالُهم المتباينة تجسيدٌ لأحلام أمةٍ كاملة، وتطلُّعُ الأجيال المتعاقبة إلى الأفضل والأرقى لاَ ينتهي.

مصطفى بيّومي

روائي وناقد مصري من أعماله **معجم أعلام نجيب محفوظ** (١٩٩٨)، ومن رواياته **السيد الأستاذ الدكتور العميد** (٢٠٠٣).